دعوة إلى استعادة الأمة المستخلَفة

حسن ياسين عبد القادر

المكتب المصري الحديث

دار الكتب المصريـــــة

فهرســة أثنــاء النشر إعــداد إدارة الشئون الفنية

عبد القادر، حسن ياسين.

دعوة إلى استعادة الأمة المستخلفة / حسن ياسين عبدالقادر . - طـ ١. - القاهرة : المكتـب المـصري الحـديث،٢٠١٤ ،١٢٤ص؛ ٢٤سم.

تدمك ٧ ٢٥٦ ٢٠٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- العبادات (فقه إسلامي)

٢- الأخلاق الاسلامية.

أ- العنوان ٢٥٢

رقم الايداع ٩٢٩٩ / ٢٠١٤ بتاريخ ٥ / ٥ /٢٠١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

(آل عمران: ٧٩)

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت
ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات
الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدمًا

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
Email: may٦٤٢٠٠٣@yahoo.com

القاهـــــرة: ٢ شارع شريف عمـــارة اللـــواء ت : ٢٣٩٣٤١٢٧
الإسكندريـــة ٧ شارع نوبـــار المنشيـــــــة ت : ٤٨٤٦٦٠٢

الإهـــــــداء

إلى فلذات أكباد مصر – والشهداء منهم خاصة – أحفاد أحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ومكرم عبيد – أولئكم الصانعون – مبدعين – ملحمة الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١.

المؤلف

مقدمة

اللهم لك الحمد، وإليك المشتكي، وبك المستعان والمستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، واهتدوا بهديه وسلكوا طريقه فكانوا حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون.

وبعد فإن من حِكَم الله تعالى وأسراره العظيمة في خلق الإنسان الأول وهو سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام هي إقامة خلافة الله تعالى عز وجل على هذه الأرض "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٣٠)، وتعريف الخلافة الإلهية في الأرض هي كينونة الحياة الإنسانية وفق مرضاة الله تعالى، وتقواه وطاعته، فالإنسان ليس خليفة الله تعالى، كما قال الصديق أبو بكر لما تولى أمر المسلمين بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لما قيل له: أنت خليفة الله، قال: لست خليفة الله وإنما خليفة رسول الله، لأن المرء لا يخلف إلا الغائب والغياب في حق الله تعالى مستحيل، كما يقول ابن خلدون، والإنسان حين يؤكد عبوديته لخالقه – سبحانه – يقترب بقدر الإخلاص والتفاني في هذه العبودية – من الكمالات الأخلاقية والخصال الملائكية فيصير عبدا ربانيا كما قال الحق تبارك وتعالى "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللهِ ولَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الكِتَابَ وبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ" (آل عمران:٧٩)، وقد قال الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره لهذه الآية، لا أدعوكم على أن تكونوا عبادا لي، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكا وعلماء باستعمالكم أمر الله تعالى ومواظبتكم على طاعته ولا اعتقد أن معنى الخلافة في الأرض أكثر من ذلك ولا أقل فيه والله أعلم، وبعبارة أخرى أن الإنسان كلما تخلّق بأخلاق الله تعالى يوشك أن يكون عبدا ربانيا فهذه الربانية هي خلافة تشريفية من الله العزيز الحكيم لعبده، كما يقول الراغب الأصفهاني (والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلَف وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض) (المفردات في غريب القرآن ص١٥٦).

وبهذا المفهوم أو التعريف للخلافة كما أشار إليه الراغب الأصفهاني، والذي أخترته مجبذا ومؤثرا عن تعريفات عديدة للخلافة، أو خلافة الإنسان لكنني أردت أن أطلق هذا التعريف ليس على الإنسان وحسب، وإنما على الأمة الإسلامية لكي تنال شرف الأمة المستخلَفة، كما نالت هذه الأمة شرف وعزة وكرامة خيرية الأمم من خالق الأرض والسموات وما بينهما عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال تعالت أسماؤه وعظمت كبرياؤه وجلت قدرته الله العزيز الحكيم في قوله تعالى: "كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ" (آل عمران: ١١٠).

إن خصائص ومقومات ودعائم الأمة المستخلَفة أشمل وأوسع مما احتوته دفتا هذا البحث، ولكني أردت الإيجاز، إيجاز ما ارتأيته مهما وجوهريا بعقلي القاصر، ولعلي اقتديت بالآية الكريمة التي حصرت شروط خيرية الأمة في ثلاثة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله عز وجل لعظمة هذه الشروط الثلاثة وخطورتها وأهميتها، وقد بدأت بأولى دعائم الأمة المستخلَفة وهي العبادات أو الفرائض الركنية، لأن هذه الفرائض على الرغم من كونها من أركان الدين الحنيف، غير أن من شروط قبولها والفوز بثوابها أن يكون لها مردود ونتائج أخلاقية وسلوكية طيبة وإيجابية فمن صلى وصام وزكى وحج بيت الله الحرام وحسب فإن حديث المفلس له بالمرصاد. كذلك عليّ أن أشير إلى ما ينال من قضية الأمة المستخلَفة، وهي أننا أهملنا نسيانا أو تناسيا أو تجاهلا العمل الجاد والدءوب نحو حل المشكلات المصيرية والملحة للأمة الإسلامية عامة والعربية خاصة، على الرغم من أننا نملك الوسائل الكفيلة بذلك، ولا أعني بالوسائل العسكرية منها فقط، بل لدينا وسائل مالية وجغرافية أقوى بكثير من الوسائل العسكرية، ولكننا أهملناها وتغاضينا عنها إيثارا وحبا للسلامة ورغد العيش وحرصا على الماء والخضرة والوجه الحسن.

إن قضية فلسطين (دولة وإعادة اللاجئين إلى وطنهم وتحرير القدس الشريف وإنقاذه من الهدم، وتحرير الجولان والعراق وأفغانستان) كل هذه مسئوليات إسلامية نُسأل عن تقصيرنا وتقاعسنا حيالها يوم تبلى السرائر، ولا عذر لأننا كما قلت عندنا الوسائل الفعالة لإزالة الظلم والطغيان والغطرسة.

من البدهي المسلّم به أن الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، فليس الإسلام دينا كهنوتيا ولا روحيا يعني بمتطلبات وحاجات الروح وحسب، بل إنه دين لا يضحي بالروح في مقابل تطلعات الجسد، والعكس مرفوض، أيضاً إسلامياً بل إن الروح والجسد في كفة واحدة "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (ص: ٧٢).

ولذلك كان من الحتمي تنظيم حياة الإنسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والأسرة وفقاً لشريعة الإسلام المستمدة من الكتاب والسنة، ولا تستقيم الحياة الإنسانية إلا بإقامة أواصر ووشائج المودة والثقة والتوقير بين الراعي والرعية، أو الحاكم والمحكومين، ولا وشيجة ولا مودة ولا ثقة ولا توقيرا إلا بسيادة العدل والشورى، والعدل الإسلامي عدل مطلق يستظل بظله الوارف الإنسان مطلقا مجردا من دينه وطبقته الإجتماعية وعرقه ولونه وجنسه، بل وسواء كان عدوا أو صديقا، والشورى شقيقة العدل وصنوه، فلا استبداد ولا إنفراد بإصدار قرار مصيري وقومي إلا بالرجوع إلى أهل الحل والعقد أو المجالس النيابية في عصرنا الراهن (البرلمان) وقد عانت الأمة من قضية الدين والسياسة، ولا تدين للسياسة ولا تسييس للدين ولا شأن للدين بالسياسة ولا للسياسة بالدين وهي من المقولات المستوردة، كالسلع المستوردة التي فقدت صلاحيتها منذ قرون، حيث إن هذه المقولات وجهت لدين غير دين الإسلام، وفي ظروف سياسية ودينية واجتماعية لم يألفها ولم يعهدها الإسلام طوال تاريخه المجيد وقد أبطلنا هذه الفرية أو الأكذوبة بالحجج والبراهين المقنعة.

❁ ❁ ❁

خلال حديثنا عن العبادات الركنية في الإسلام، وأثناء هذا التقديم أكدنا أن هذه العبادات لها أبعاد ونتائج أخلاقية، وسلوكية ترتقي بالحياة الإنسانية رقيا وسموا ونبلا، لذلك كان حقا علينا أن نفرد للأخلاق الإسلامية فصلا مستقلا، هذه الأخلاق التي تعد لغة تخاطب عالمية، بين البشر جميعا على اختلاف مستوياتهم وعقائدهم ومبادئهم، وكان مسك الختام هو أخلاق الإنسان الذي غزا واستولى بأخلاقه القرآنية قلوب وأفئدة الأعداء قبل الأصدقاء، انها أخلاق من قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين الذي أقسم المولى عز وجل بحياته سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وسلم.

في ختام هذه المقدمة يجدر بنا أن نشير بكل إشادة وتقدير وإجلال إلى ثورة ٢٥ يناير المصرية، ومرجع هذه الإشادة والتقدير والإجلال لا يكمن فقط في خلع وإسقاط رئيس جثم على صدر البلاد ثلاثين عاما، وإنما مصدر عظمة هذه الثورة، ومآل خلودها هو أولا: أنها ثورة وليست انقلابا عسكريا يستهدف الإطاحة بحكام حالين، وإحلال إنقلابيين عسكر، ثانياً: أنها ثورة سلمية شهد بسلميتها العالم أجمع، ثالثاً: أنها ثورة مصرية ذاتية، رابعاً: كانت لثورة الخامس والعشرين من يناير أصداء والهامات وتداعيات لم تقتصر على

المنطقة العربية وحدها، وإنما تجاوزتها إلى القارة الأوروبية والأمريكية. فقد اشتعلت ثورة شعبية في أمريكا ضد رجال الأعمال والأثرياء الذين استأثروا بـ ٩٩٪ من المدخرات والمقدرات، ولم يدعوا للشعب الأمريكي إلا ١٪ فقط من هذه المدخرات فقام هذا الشعب بانتفاضة كان شعارها "احتلوا الوول استريت" وعمت هذه الانتفاضة ٩٠ مدينة أمريكية، كما وافتنا الأنباء الصحفية أن رياح ربيع الثورات العربية بلغت ألمانيا، وهتف الثوار هناك قائلين "احتلوا فرانكفورت، حي المال، ولا ننسى الهبات الشعبية أيضاً في اليونان وأسبانيا وإيطاليا والبرتغال.

ومن أهداف الثورة التي تحققت حتى الآن الانتخابات النيابية والرئاسية التي تميزت – ولأول مرة منذ ستين عاما – بالنزاهة والشفافية والمصداقية وبالمشاركة الشعبية المكثفة (٣٠ مليونا) ولأول مرة أيضاً في تاريخ الانتخابات المصرية تلاها وضع دستور جديد تولته جمعية تأسيسية تكونت من النخب والأطياف الوطنية استفتى الشعب على هذا الدستور، وحظي هذا الاستفتاء أيضاً بروح الديمقراطية، والحرية المطلقة في التعبير سلباً أو إيجاباً، كانت هذه الإنجازات الثورية كفيلة وجديرة بانتقال البلاد من المرحلة الانتقالية القلقة إلى مرحلة الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولكن شرذمة ضالة ومضلة محسوبون زورا وبهتانا على شعب مصر أبت إلا أن تجهض ثمار ونتائج ما تحقق من أهداف الثورة المجيدة ولم لا؟!! وهذه الشرذمة هي التي كانت ترتع وتلعب وتلهو وتنهب – قبل الثورة – في ظل حكومة اتخذوها قدوة في الفساد والإفساد والسطو واللصوصية والقمع والإبادة البشرية وانتهاك الأعراض في أقبية مباحث أمن الدولة، وغيرها، فلم لا يعلنوها ارتدادا إلى الماضي البغيض مؤيدين بإعلام وقنوات الفسق والفجور التي كشفت عورته جهارا نهارا بعد أن مزقوا برقع الحياء والأخلاق والعفة والإنسانية، وليتهم اكتفوا عند هذا الحد المزري المخجل القبيح، بل وجهوا أذنابهم وعملاءهم إلى الشوارع والميادين للتخريب والتدمير وحرق المنشآت العامة والخاصة والهجوم على خطوط المواصلات الداخلية وشبكة الطرق التي تربط العاصمة بمدن المحافظات وأن المجمع العلمي الذي يضم التراث القومي والتاريخي والإنساني لم يسلم من اعتدائهم حرقاً لهذا المجمع العظيم.

إنهم يزعمون بهمجيتهم وحماقاتهم التي يسمونها معارضة يريدون إعادة عقارب الساعة إلى الوراء يريدون عودة الحاكم الفرد المستبد ونظامه الفاسد والمفسد، لكي يستعيدوا ما أفقدتهم ثورة ٢٥ يناير المتع المالية والمادية المحرمة وملياراتهم المهربة خارج الحدود وهي ثمن بيعهم العقارات والشركات الاقتصادية الناجحة بأسعار بخسة

معدودة. ناهيك عن الظلم الاجتماعي الذي هو من خصائص العهد البائد. إن الأمن العام كان يتدخل في تعيين الوظائف العامة، يحرم منها ما يشاء ولو من الشباب الجامعي الحاصل على التقديرات العليا، مصرحا بتعيين عديمي الكفاءات العلمية ما داموا من أبناء النخبة ذات الحظوة، وهل نسينا شبابنا الذين يغامرون بحياتهم بحثا عن لقمة عيش شريفة في إيطاليا واليونان متخذين وسيلة قوارب متهالكة بل هي نعوش عائمة، تحت سمع وبصر حكام ذلك الزمن التعيس، إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – يقول "لو عثرت دابة في العراق لسئلت عنها لم لم تمهد لها الطريق".

أخيراً – بمشيئة الله تعالى – إن إنجازات ثورتنا المجيدة آتية لا ريب فيها بفضل الله وعونه وتوفيقه، وإن غدا لناظره قريب، وعلى الله قصد السبيل..،

حسن ياسين عبد القادر

حدائق حلوان

ربيع أول ١٤٣٥هـ - يناير ٢٠١٤م

الفصل الأول

ماهية الاستخلاف

ماهية الاستخلاف

"وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ" (البقرة: ٣٠)

قال الراغب الأصفهاني "والخلافة النيابة عن الغير، إما لغيبة المنوب عنه، وإما لموته، وإما لعجزه، وإما لتشريف المستخلَف، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه في الأرض"[1]. وكما روى عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما خرج إلى تبوك استخلِف عليا فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء قال: ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي، "ومنهم من يرى أن الخلافة التي ذكرها الله، إنما هي خلافة قرن لقرن يخلف بعضهم بعضاً" كما في قوله تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"[2]، وهذا قول عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – وطائفة أخرى من المفسرين"[3].

والذي نختاره في هذا البحث هو قول الراغب الأصفهاني – الثالث وهو تشريف المستخلَف وهو المعنى نفسه في قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – أما الخلافة بمعنى النيابة لغياب المنوب عنه فهو محال في حق الله عز وجل. ولذلك أنكر أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – لما قيل له بعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام – أنت خليفة الله قائلا لست خليفة الله وإنما أنا خليفة رسول الله، وقد علل ابن خلدون إنكار الصديق أن يكون خليفة الله "إن الإنسان إنما يخلف الغائب والغياب في حق الله مستحيل" ونقول إن الخلافة المعنية في قوله تعالى: "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"، هي إقامة شريعة الله تعالى في الأرض وتطبيق دعوة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، هؤلاء الأنبياء والمرسلون الذين جاهدوا في الله بعد جهاده لإخراج الأمة المستخلَفة التي قوام حياتها ومماتها لله رب العالمين

---

(1) المفردات في غريب القرآن.
(2) سورة يونس، الآية ١٤.
(3) الحقائق العظمى في حياة الإنسان د. محمود عبده.

لا شريك له أمة متخذة شريعة الله حُكما وحَكما ونبراسا ولذلك صبر النبيون والرسل وصابروا ورابطوا ولقوا من أقوامهم جميع صور التعذيب والتكذيب والاستهزاء والعنت، فهذا خليل الله تعالى سيدنا إبراهيم عليه السلام يقول مخاطبا أباه وقومه "إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)" [1]، وهذا هو سيدنا هود عليه السلام "وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٥١) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (٥٢) قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣)" [2]، "وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ (٦١) قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٦٢)" [3]، "وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤)" [4]، وهذا خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى ما دعا إليه أخوانه من الأنبياء والمرسلين يدعوهم إلى وحدانية الله تعالى في العبادة "يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتدين لكم بها العجم، فإذا آمنتم كنتم ملوكا في الجنة" [5].

نعم إن الإيمان بوحدانية الله عز وجل هو الركن الأول لوجوب وصحة إقامة خلافة الله تعالى في الأرض بالتعريف السابق الإشارة إليه: إقامة دين الله عز وجل في الحياة الدنيا تجعل الحياة الإنسانية في سبيل الله "قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

---

(1) سورة الشعراء، الآيات ٧٠-٨١
(2) سورة هود، الآيات ٥٠-٥٣
(3) سورة هود، الآيات ٦١-٦٢
(4) سورة هود، الآية ٨٤
(5) زاد المعاد، ج١

تجعل الحياة الإنسانية في سبيل الله "قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)"[١]، ولكن لماذا كان الإيمان بوحدانية الله عز وجل ركنا جوهريا لعمارة الأرض على أسس العدل والحق، ومن المؤكد يقينا أن الله تعالى غني عن إيمان أحد أو كفره وجحوده "وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ"[٢]، "وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ"[٣]، نقول إن الإيمان بوحدانية الله تعالى وعبادته محققان الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة للمؤمن بهذه الوحدانية، لأن هذا الإيمان بالله إلها واحداً لا شريك له ينطوي في الوقت نفسه الكفر بكل طاغوت متكبر متجبر مثل فرعون وهامان وقارون ونمرود ونظرائهم في العصور والأزمنة الماضية والحالية والآتية.

ذلك أن الكفر بكل طاغوت مستبد للإيمان بالحق والعدل والمساواة والعتق من الأصار والأغلال والأصفاد. ولذلك لما دعا رسولنا محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم – الناس إلى أن يقولوا: "لا إله إلا الله، قيل له: هذا أمر تكرهه الملوك، وقال له آخر: إذن تحاربك – أي يا محمد – العرب والعجم".

أجل إن كلمة لا إله إلا الله تزلزل عروش الظلم والطغيان إنها كلمة تدمر الاستكبار والعلو في الأرض. وفي الوقت نفسه إن لا إله إلا الله تعلن المساواة والعدالة السياسية والاجتماعية بين البشر أجمعين لا فرق لعربي على أعجمي إلا بالتقوى ولا عجب في ذلك أوليست لا إله إلا الله هي كلمة التوحيد "وأن من معاني كلمة التوحيد – كما يقول بعض اللغويين – النصفة والقسط والعدل. ومن معاني كلمة الشرك/ الإسراف والتجاوز والظلم". ولا شك أن كل متدبر أوتي فهما جيدا، وفكرا ذا حيدة وموضوعية يقر ويؤمن بمصداقية ما ذهب إليه أولئك العالمون بروح وجوهر اللفظ العربي وإيحاءاته ومضامينه البعيدة الغور، ذلك أن كلمة التوحيد ومشتقاتها مثل الأحد والواحد والتوحد والوحدانية تعني عدم الازدواجية والتعددية والاختلاف، ومادام التوحيد نقيضا للازدواجية لزم أن يكون من معانيه العدل والمساواة والإنصاف. ولقد وصف القرآن الكريم الشرك بأنه ظلم، وذلك على لسان لقمان الحكيم "إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ"[٤]، ووصف الله عز وجل

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١٦٣.
(٢) سورة الكهف، الآية:٢٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية:٨
(٤) سورة لقمان، الآية:١٣.

والمبادئ العظيمة من العدل والقسط والإنصاف من القواعد المكينة في بناء وترسيخ الاستخلاف الإلهي في الأرض، إن لا إله إلا الله حصرت حصرا مطلقا الألوهية الحقة على المعبود بحق وصدق سبحانه وتعالى، نافية نفيا جازما ومطلقاً الألوهية والربوبية على كل ما سوى الله تعالى، سواء كانت هذه السوى بشرا نبياً أو ملكاً من الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فضلاً عن كون هذه السوى ملكا من ملوك الأرض أو طاغية من الطغاة – أو صنما أو وثنا من الحجارة أو وليا من الأولياء الأحياء أو الأموات كما عبدهم قوم نوح عليه السلام "وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ ولا تَذَرُنَّ وَدًّا ولا سُوَاعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْرًا"[1].

نخلص مما سبق آنفا أنه لكي تظلل خلافة الله تعالى الكون ينبغي أولاً سلامة وصحة العقيدة، وهي الإيمان بالله تعالى إلها واحدا وربا واحدا للعالمين، ولن يصح هذا الإيمان ولا يكتمل إلا بالإيمان بالملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر وبالبعث وبالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره، أو أن يقترن الإيمان بالعمل الصالح وهو عبادة الله تعالى عز وجل بما شرع، ومعلوم أن عبادة الله سبحانه ليست مقصورة على تأدية الأركان من صلاة وزكاة وصيام وحج، كلا إن ماهية العبادة تستغرق حياة الإنسان كافة.

إن كلمة العبادة مشتقة من قولنا هذا طريق معبد أي ممهد ومزلل لا عوج فيه ولا أمتا. وعبادة الله تعالى وطاعته وانقياده لأمره تعالى ونهيه وانصياعه لشريعته، وليس هذا وحسب، أي لا يتحقق معنى عبادة الله تعالى إلا إذا اقترن خضوع العبد لمولاه سبحانه بالحب، والحب الخالص النابع من إيمان العبد الراسخ والمؤكد أن طاعته لربه جل وعلا عائدة منفعتها وثمرتها للعبد نفسه دنيوياً وأخروياً فالله غني حميد عن عبادة عباده لا تنفعه – سبحانه – طاعتهم ولا تضره معصيتهم، كما أن إيمانهم أو كفرهم لا ينفعه ولا يضره، كما سبق الحديث عن وحدانية الله عز وجل. واشتراط المحبة في عبادة المعبود بحق – سبحانه – لكي تتميز وتتباين عبادة الله تعالى عن عبودية ما سواه من المخلوقات، فالعبودية الأخيرة منفعة العبد فيها عائدة إلى سيده، لذلك من المألوف الطبيعي أن يبغض هذا العبد سيده الذي يسخره لمنافعه وأغراضه الشخصية بسوط الذل والمهانة، ومن جهة أخرى إذا شملت عبادة الله تعالى الكون كله بالشرطين اللذين أشرنا إليهما عندئذ يسود الاستخلاف الإلهي الأرض جميعها منشئا وعامرا الحياة الإنسانية بالحق والعدل والعلم والسلام

(1) سورة نوح، الآية:٢٣.

الإلهي الأرض جميعها منشئا وعامرا الحياة الإنسانية بالحق والعدل والعلم والسلام والحرية والجمال، والاعتصام بحبل الله. والتعاون على البر والتقوى، ولا يزعمنّ زاعم، أو يدعى مدع أن هذه الدعوة إلى كل عمل أو إنجاز أو إسهام يعود إلى البشرية بالخير والصلاح والفلاح دون أن ترتبط بأي علاقة بالإسلام، ونقول كلا بل أن هذا العمل من الإسلام وينصب في مضمون الاستخلاف الإلهي، وحيث إن المجتمع الإسلامي والعربي لديه- كما يأتي الحديث لاحقا – من الوسائل والإمكانات الإيجابية لإيجاد حلول فعالة لمشكلاتها السياسية والقومية والإستراتيجية، ولكن هذه الوسائل وللأسف في طي التناسي وليس النسيان، والتجاهل وليس الجهل بها وحل هذه المشكلات القومية من عبادة الله تعالى ومن مقومات الأمة المستخلفة.

❁ ❁ ❁

والآن يجدر بنا أن نتحدث عن العنصر أو المكون الآخر للإيمان وهو العمل، فالإيمان – ما عرفه قدوة المؤمنين والمسلمين سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه بقوله: "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل" بادئين بالعمل العبادي الذي ينحصر في أركان الإسلام من صلاة وزكاة وصوم وحج.

الصلاة:

هي العماد والأس والركن الراسخ في دين الإسلام. وهي الصلة القوية والمتينة بين العبد وربه. وهي العبادة الوحيدة التي لا تسقط بعذر من الأعذار، وسبب من الأسباب التي تسقط بعض أركان الإسلام أو تؤجلها إلى حين زوال العذر المانع.

إن الصلاة من العبادات القوية المؤثرة في سلوك الإنسان إيجابيا أو ليست الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، لأن المصلي على صلة تذكره بخالقه جلت قدرته. هذه التذكرة التي تجعله ينهي عن الفحشاء والمنكر وسيئات الأخلاق وقبيحها، قال الحق تبارك وتعالى لنبيه وكليمه موسى عليه السلام "إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي"(١)، يقول الإمام فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى: "وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي" لتكون لي ذاكرا غير ناس شأن المخلصين، كما قال تعالى: "لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ"(٢)، كما أن خمس صلوات في اليوم والليلة كفيل بتطهير سلوك المصلي من فحش القول

(١) سورة طه، الآية ١٤.
(٢) سورة النور، الآية ٣٧.

والعمل، هذا السلوك النظيف ينعكس إيجابيا على المجتمع ويجعله مجتمعا سويا بناء وعنصرا جيدا في تفعيل خلافة الله تعالى في الأرض.

ورب قائل يقول إن كثيرين من المصلين لا يتورعون عن ارتكاب كل فعل يناقض روح الإسلام وجوهره وشفافيته، نقول إن الصلاة والصوم والزكاة بل والحج إذا لم تكن له دور إيجابي في إصلاح المعاملة السلوكية وجعلها وفقا لما أمر به الشرع الحكيم ونهى عنه، فإن هذه العبادات الركنية لا جدوى لها، بل هي مردودة لعدم قبولها عند الله تعالى الغني الحميد، والحديث النبوي الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم يشهد بذلك، ونصه "عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا. وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار" وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها، قال: هي في النار، وفي الحديث أيضاً أن امرأة دخلت النار في هرة، ودخل رجل الجنة في كلب. إن هذه الأحاديث إنما تبرهن القصد والغاية الحقيقية من العبادة وهي السلام والمسالمة والمودة بين المجتمع البشري بل وغير البشري، وهذه هي جوهر الاستخلاف الإلهي في كوكبنا الأرضي، وفي الوقت نفسه هي حضارة الإسلام وأخلاق الإسلام، كما سيأتي الحديث عنها لاحقا بمشيئة الله تعالى.

الصوم:

أحد أركان الإسلام الخمسة، والفريضة بنص الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"[1]، والسنة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتفق عليه وهو بني الإسلام على خمس ومنها صوم رمضان، كما أجمع علماء المسلمين على فرضية صوم رمضان.

ولقد زعم بعض الزاعمين أن حكمة الصوم هي إشعار الغني بجوع الفقير الذي لا يجد قوته الضروري ولا لقمة عيش يدفع بها مرارة جوعه، وإن هذا لتعليل ساذج مبتذل لأنه أولاً: إذا كانت هذه العلة صحيحة بالقياس إلى الغنى، فما هي علة صوم الفقير.

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

ثانياً: إن الآية الكريمة صريحة في بيان الحكمة العليا من صوم رمضان، وهي تقوى الله تعالى، وتقوى الله عز وجل طاعته بالامتثال لأوامره، واجتناب نواهيه وبعبارة أخرى، نستطيع أن نقول أن تقوى الله مادامت هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي الإلهية فهي الاستخلاف الإلهي، فالمتقون هم الأمة المستخلَفة الذين يقيمون شريعة الله تعالى ومنهجه في الحياة الدنيا، والصوم مثل الصلاة ليس مقصورا عن الامتناع عن شهوتي الطعام والفرح نهارا، وحسب، بل هو مقوم لحياة الصائم عامة، وإن لم يكن كذلك فحديث المفلس السابق ذكره موجه لمثل هذا الصائم محذرا ومنذرا، مع حديث نبوي آخر هو قوله صلى الله عليه وسلم: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش".

الزكاة:

وهي من أركان الإسلام الخمسة، يقول الحق تبارك وتعالى: "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ"(1).

لما كان المال عصب الحياة، وحب الإنسان للمال حب طبيعي وغرزي مركوز في النفس البشرية، وقد أطلق المال في القرآن بلفظ الخير مرتين: الأولى في قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ"(2)، والثانية قوله تعالى: "وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ"(3)، لذلك فإن السياسة المالية شغلت مساحة كبيرة في القرآن الكريم، وفي السنة أيضاً، فالقرآن تحدث حديثا مسهبا عن موقف الإنسان من الإنفاق المالي الذي تراوح بين الشح والجود، والتقتير والتبذير والقصد والاعتدال، والجهاد في سبيل الله بالمال والأنفس وعبادة المال وكنزه بحرمان المستحقين، كذلك حكم التصرفات المالية حراما وحلالا، ونحن إنما يعنينا في هذا البحث دور المال وإسهامه الفعال في حل قضايا ومشكلات تحول دون خلق وإيجاد الأمة المستخلَفة، ولنا في المسلمين الأوائل القدوة الصالحة والنبراس العملي فهذا هو الصحابي الجليل صهيب بن سنان – رضي الله عنه – لما أراد الهجرة إلى المدينة للحاق برسول الله صلى الله عليه وسلم وبمن سبقه من المهاجرين، حال مشركو مكة دون تحقيق إرادته في الهجرة فقال لهم إن

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٦٠.

(2) سورة البقرة، الآية: ١٨٠.

(3) سورة العاديات، الآية: ٨.

دللتكم على ما لي تتركوني قالوا: نعم، فدلهم عليه، فتركوه، فلما وصل إلى المدينة ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، فأنزل الله تعالى في شأن صهيب قوله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ"[1].

ومن الجهاد بالمال في سبيل الله تجهيز سيدنا عثمان بن عفان – رضي الله عنه – نصف نفقات جيش العسرة بماله الخاص، كما اشترى – رضي الله عنه – بئر رومة من يهودي وجعلها للمسلمين في سبيل الله تعالى. ولأهمية زكاة المال وخطورتها كركن من أركان الإسلام أعلن أول خليفة للمسلمين أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – حربا على مانعي الزكاة بعد انتقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى. على الرغم من اعتراض الفارق عمر بن الخطاب على قتال مانعي الزكاة قائلا للصدّيق: علام نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها" فقال أبو بكر: والله لو منعوني عناقا[2]، وفي رواية عقالا[3]، كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأقاتلنهم على منعها. إن الزكاة حق المال والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة. قال عمر: "فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق"[4]. ونعتقد أن الذي دفع أبا بكر الصديق إلى قتال مانعي الزكاة أمران جد مهمين أولهما: أن هؤلاء الرافضين لتأدية الزكاة، اتخذوا منعهم الزكاة تكأة وذريعة لاختبار هيبة الدولة وقوتها، فإذا تهاونت حيال منعهم الزكاة، تيقنوا من ضعف الدولة عسكريا، ولا سيما بعد خروج الجيش الإسلامي من المدينة بقيادة الصحابي الشاب أسامة بن زيد، وذلك لملاقاة الروم، حينئذ لن يكتفي المانعين من عدم أدائهم الزكاة بل سينشون هجوما على عاصمة الدولة (المدينة المنورة) تمهيدا لإسقاطها. ثانيهما: أن الصدّيق – رضي الله عنه – كان على علم يقيني أن الزكاة حق المال، وأن التهاون في هذا الحق المالي كفيل بإضاعة حقوق الفقراء والمساكين، وإشاعة الفقر والعوز، ومن ثم يدب الضعف والاستكانة في بنيان خلافة الله تعالى في الأرض، حيث إن للخلافة حقوقا مثل واجباتها وفرائضها.

---

(١) سورة البقرة، الآية ٢٠٧.
(٢) أنثى ولد الماعز.
(٣) ما يوثق به البعير
(٤) البداية والنهاية ص٣.

والمال سلاح ذو حدين، فهو نعمة لمالك، ونقمة لمالك آخر، والمعول والمحك يرجع إلى نوعية الاستخدام الإنفاقي. فموقف سيدنا عثمان بن عفان والصحابي صهيب بن سنان من مالهما موقف إيجابي وصحيح لأنهما أدركا نعمة المال، فأنفقاه فيما يعود عليهما وعلى المجتمع المسلم بالخير والبركة والنماء والقرآن الكريم يعرض علينا من الصور السلبية لاستخدام المال، فهذا ثعلبة في العهد النبوي يطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ملحاً في الطلب أن يدعو الله تعالى له، بوفرة المال، والرسول عليه الصلاة والسلام لما كان بالمؤمنين رءوفا رحيما أراد أن يثنيه عن طلبه هذا قائلاً له: قليل من المال تشكر الله عليه خير من كثير لا تشكره عليه، ولكن هذا الرجل ظل في إلحاحه في الطلب والتوسل حتى اضطر صلى الله عليه وسلم لأن يدعو له بما أراد، فكثر ماله وصار من الأثرياء، وليته ما اغتنى وما ملك فبقدر ما ملك واستغنى بقدر ما أصيب بالشح والبخل والتقتير، ويا ليته كان بخيلا على نفسه وبيته وأسرته، ولكنه امتنع رافضا أداء زكاة ماله، ناعتا فريضة الزكاة بأنها جزية وجباية غير مشروعة.

ألم يعلم أن المال مال الله تعالى، "آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ"(1).

إن للمال وظيفة اجتماعية وتنموية واقتصادية وإنسانية لترسيخ قيم وقواعد خلافة الله تعالى، فليس المال اكتنازا واقتناء وتباهياً وافتخاراً.

ولقد أنزل الله تعالى في ثعلبة هذا قرآنا يتلى "وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"(2).

من القصص القرآني أيضاً الذي يتناول الاستخدام السيء والهدام للمال قصة قارون الذي أتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ولكنه استقبل هذه النعمة بالكفر والجحود والاستكبار "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا

---

(1) سورة الحديد، الآية ٧

(2) سورة التوبة، الآية ٧٧

أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ولا تَبْغِ الفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفْسِدِينَ"[1]، ولكن أين قارون الذي أعمى بصيرته اكتنازه المال والثروة فقد أبى واستكبر على نصيحة قومه، شأن الكثيرين في كل عصر من ذوي الأموال الطائلة ينظرون إلى سواهم من الفقراء والمساكين بعين الاحتقار والإزدراء فجاء رده معبرا عن نفسية منحرفة عن سواء السبيل "قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعًا ولاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجْرِمُونَ"[2]. وأين هو من الله الذي يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. أجل كان الحكم الإلهي الذي لا يفلت منه أحد "فَخَسَفْنَا بِهِ وبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ ومَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ"[3]. وعلى الرغم من ذلك فإن المال – كما ذكرنا آنفا – ليس مذموما أو مكروها على الإطلاق فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: نعم المال الصالح للرجل الصالح، والمقصود بالمال الصالح ما كان من مصدر مشروع إسلاميا، والرجل الصالح هو الذي ينفقه في المواطن الصالحة والخيرة التي تدعم وترسخ الاستخلاف الإلهي. فالثروة المادية والمالية نعمة ربانية، ولكن لما كان الشاكرون لهذه النعمة قليلين "وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ"[4]، لذلك حذرنا الرءوف الرحيم – سبحانه – من الترف والإسراف والتبذير، لأن المترفين والمسرفين كانوا معوقين ومعرضين عن دعوة الأنبياء والمرسلين – عليهم الصلاة والسلام – يقول الحق تبارك وتعالى: "واتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وكَانُوا مُجْرِمِينَ"[5]، ويقول عز وجل: "وإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا"[6]، ويقول سبحانه: "وقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ وأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ويَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) ولَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ"[7]، ويقول تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ"[8]، الترف والإسراف تؤدم ذميمان منهى عنهما إسلاميا. أو أن الترف مؤد إلى الإسراف.

---

(١) سورة القصص، الآية:٧٦

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

(٣) سورة القصص، الآية:٨١

(٤) سورة سبأ، الآية ١٣.

(٥) سورة هود، الآية ١١٦.

(٦) سورة الإسراء، الآية:١٦.

(٧) سورة المؤمنون، الآية ٣٣

(٨) سورة سبأ، الآية ٣٤

إن الإسراف حتى في النفقة الشرعية غير مستحب يقول أصدق القائلين جل وعلا "وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا"[1]، إن فرعون لما طغى وتجبر واستغل سلطته وحكمه في استعباد قومه كان مسرفا يقول الحق تبارك وتعالى: "إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ"[2]، وكذلك لما استعلى قارون بثرائه وكنوزه المالية جاحدا نعمة ربه قائلا: "إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي"، خسف الله تعالى به الأرض، فالفرعونية مثال للاستبداد والاستعباد بسلطة الحكم. والقارونية نموذج للاستكبار والعلو بالمال والثروة. وكلتاهما إفساد وعتو وطغيان في الأرض وعدوتان لدودان للأمة المستخلَفة ولقيم ومبادئ الاستخلاف الإلهي.

ونقول مؤكدين مرة أخرى أن الإسلام لا يحرم السعي إلى المال وامتلاكه، مادام مصدر المال ومصرفه مشروعين إسلاميا وصاحب مال مؤد حق الفقير زكاة وطهرا لماله يقول عز وجل: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"[3]، أجل إن المال زينة ونعمة من المنعم تباركت أسماؤه وواجب على من أنعم عليهم الشكر والحمد والثناء، والذي نود أن نقوله أن الأمة الإسلامية حباها الله تعالى بثروات مالية وعينية ومعادن نفيسة في باطن الأرض وأموال طائلة بعملات مختلفة في المصارف الأجنبية والمحلية، ولكن للأسف وبكل حزن ومرارة كل هذه النعم الربانية لم تستغل ولم توظف استغلالا وتوظيفا إسلاميا وقوميا كما ينبغي أو بعبارة أدق لم توجه الوجهة الصحيحة التي تحقق الأهداف الإستراتيجية للأمة المستخلَفة، وهي خير أمة أخرجت للناس. إلا في فترة مستثناة من فترات تاريخ الأمة المعاصر، وأعني بهذه الفترة المجيدة فترة حرب العاشر من رمضان الموافق السادس من أكتوبر ١٩٧٣ حين أجمعت دول البترول العربية على قطع البترول عن أمريكا والدول الأوروبية، يوم أن قال الملك فيصل بن عبد العزيز ملك السعودية قولته الخالدة موجها بها إلى دول الغرب "إننا مستعدون على الاستغناء عن عائدات البترول والعودة إلى حياة الخيام والنخيل". أجل إنها كلمة خالدة ورائعة من ملك تعتمد دولته اقتصاديا على البترول، كما هي كلمة خالدة ورائعة لأنها قيلت في لحظة تاريخية دقيقة وحاسمة. لحظة اشتعال المعارك العسكرية على جبهة قناة السويس في مصر. والجبهة

---

(١) سورة الفرقان، الآية:٦٧.
(٢) سورة يونس، الآية:٨٣.
(٣) سورة الأعراف، الآية:٣٢.

السورية وبعد سقوط خط بارليف وعبور القوات المصرية إلى الضفة الشرقية من القناة محطمين أسطورة وخرافة الجيش الذي لا يقهر، نقول نحن في حاجة ملحة وضرورية إلى روح الاعتصام بحبل الله المتين التي ظهرت خلال معركة العاشر من رمضان، وبذلك أسهم البترول العربي الإسلامي سلاحا فعالاً وقويا مهددا دول الغرب وأمريكا بإيقاف ضخ البترول إلى أوطانهم، البترول العربي الذي يعد شريان حياتهم الاقتصادية والعسكرية ولينا نستفيد من درس قطع البترول، مستخدمين أسلحة أخرى نملكها في أيدينا لاسترداد حقوقنا القومية والمصيرية دون أن نضطر لاستلال السيوف وسفك الدماء.

أولاً: ما هي حقوقنا القومية والمصيرية:

١- تحرير الأراضي العربية المحتلة بعد ١٩٦٧م.

٢- استعادة القدس الشريف مسرى ومعراج رسولنا صلى الله عليه وسلم.

٣- إقامة الدولة الفلسطينية.

٤- إعادة اللاجئين الفلسطينيين.

٥- تحرير أفغانستان من الاحتلال الأمريكي.

ثانياً: الوسائل المقترحة والكفيلة بإعادة حقوقنا القومية والمصيرية هي:

١. سحب الأرصدة المالية العربية التي تقدر بآلاف المليارات من الدولارات من المصارف الأمريكية والأوروبية.

٢. قطع البترول عن الدول الأجنبية.

٣. تصفية الوجودِ الأمريكي في دول الخليج العربي وغيرها مثل القواعد العسكرية.

هذه هي الوسائل الإستراتيجية التي نطالب بها هي في مقابل استرداد حقوقنا المصيرية الخمسة المشار إليها سابقا، فإذا لم تعد إلينا تلك الحقوق فينبغي أن نسحب أرصدتنا المالية من تلك المصارف التي تدير مصانع الأسلحة والطائرات. وكذلك نمضي في عدم ضخ البترول، ونعمل على تصفية القواعد والمنشآت الحربية المنتشرة في أنحاء دول الخليج العربي. إن من المعلوم البدهي لدى رجل الشارع العادي، ناهيك عن المفكر والمثقف والمتعلم أن أسلحة إسرائيل المصوبة إلى صدورنا وصدور الفلسطينيين من الأطفال والنساء والشيوخ وتدمير بيوتهم ومبانيهم. هذه الأسلحة الإسرائيلية المحرمة دوليا نحن المسلمين والعرب دافعون ثمن هذه الأسلحة الإسرائيلية، وذلك من أرصدتنا المالية الموظفة في بنوك أمريكا وأوروبا.

إن الولايات المتحدة الأمريكية المؤيدة لإسرائيل تأييد كاملا، وذلك بمدها بأحدث الأسلحة الفعالة من طائرات مقاتلة وقاذفة بالإضافة إلى المعونات المالية والمادية دون مقابل، ناهيك عن تأييدها سياسيا ودبلوماسيا في المنظمات الدولية، وفي المقابل فإنها أي أمريكا تعامل الدول العربية بنقيض معاملتها لإسرائيل، فإذا باعت طائرات حربية مثلا لدولة عربية، فإنها تبيعها بأسعار مضاعفة لأسعارها الفعلية، بالإضافة إلى أن هذه الطائرات ذات كفاءة أقل بكثير من كفاءة نظيرتها من الطائرات المسلّمة لإسرائيل مجانا، فلماذا تفضل أمريكا إسرائيل الدولة التي لا تمد أمريكا ببرميل واحد من البترول، وليس لدى أمريكا قاعدة عسكرية واحدة في إسرائيل، وليس لإسرائيل أرصدة مالية ضخمة تبعث الحياة في بنوك أمريكا مثلما للدول العربية، فلماذا إذن هذه المودة والتدليل الأمريكي لإسرائيل.

إنها قوة اللوبي اليهودي التي تملك القدرة في اختيار المرشح للرئاسة الأمريكية، فأي مرشح لهذه الرئاسة لن يتربع على المكتب البيضاوي في البيت الأبيض إلا إذا نال رضا وموافقة اللوبي اليهودي، ونحن العرب والمسلمين ليس لدينا لوبي عربي، على الرغم من الكثرة الكثيرة منا ومن ذوي الثقل السياسي والثقافي والمالي في أمريكا، ولكنا كما قال الصادق الأمين – صلى الله عليه وسلم : غثاء كغثاء السيل.

أجل لا نملك قوة ضغط سياسي في أمريكا مثل اليهود، ولكن عندنا ما هو أقوى وأشد تأثيراً وفاعلية، ولكننا لا نلقى له اهتماما والتفاتا بل لقد أهملناه ونسيناه نسي منسيا

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ

والماء فوق ظهورها محمول

إنما نملكه ما أشرت إليه آنفا وهو:

١ – البترول. ٢ – الأرصدة المالية. ٣ – القواعد العسكرية

نعم، إن مجرد التهديد أو التلميح بالتهديد بهذه الأسلحة مثل زلزلة الساعة تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

السؤال المحوري والجوهري والحتمي هو هل نحن العرب عامة. حكام دول الخليج العربي قادرون على اتخاذ مثل هذه الخطوة المتحدّية والجريئة والمصيرية أقول نعم قادرون، ولكن بشرط واحد هو أن تكون القدرة مقترنة بالإرادة – خاصة.

فهناك بون شاسع وعميق بين القدرة والإرادة ولماذا لا نريد ما نستطيع فعله وإنجازه ؟ لأن الإرادة تعني التضحية بالمصالح الشخصية والذاتية، تعني هجر الحياة الرغدة الناعمة، التي توفر **"حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب"** ولكن من قال أن التمتع من الطيبات محرم؟ كلا ليس محرما كما أسلفا ذلك، **ولكن هناك دائما في حياة الأفراد والشعوب والأمم والحكام أولويات وضروريات ينبغي التضحية بجانب من الكماليات لتحقيق تلك الأولويات الملحة.**

قلنا إن الإرادة وما نعنيه بالإرادة في هذا المقام هي الإرادة القومية والسيادية، نقول إن الإرادة بهذا التعريف تعني – كما ذكرنا – التضحية بالمصالح الشخصية في مقابل العزة والكرامة وتحرير وإعادة المغتصب من أرض الإسلام وتوطين المشردين ظلما من ديارهم. وفك أسر بيت المقدس أولى القبلتين وثالث الحرمين بل أن مسجدنا الأقصى لم يكتف أعداء الإسلام والمسلمين بأسره بل إنهم جادون في هدمه بحثا – كما يدّعون – عن هيكلهم المفقود. والمسلمون في عبث ولهو يلعبون إلى متى عبثنا ولهونا؟ نريد أن نعلن للعالم أجمع أننا جديرون بثناء الحق تبارك وتعالى حين منحنا وساما إلهيا بأننا خير أمة أخرجت للناس، ومن مقومات وخصائص هذه الخيرية أن نتخذ قرارا يفرض على العالم احترامنا وتقديرنا ولا قرار أعظم وأكرم مثل القرار المصيري والتاريخي القومي والإسلامي السابق الإشارة إليه كفانا خطب مؤتمرات القمة العربية التي بدأت أوائل الستينيات من القرن الماضي وإلى قرننا الحادي والعشرين حقا إنها مؤتمرات الخطب واستقبال الرؤساء وتوديعهم بالعناق والقبلات ولا شيء. مؤتمرات لم تمنع هزيمة ١٩٦٧ ولم تعد الجولان ولا الضفة الغربية ولا القدس الشريف إن لم نقل أنها السبب في إضاعتها.

الحـــج:

"ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ومَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ"(١)، الحج هو الركن الأخير من أركان الإسلام الخمسة، كما جاء في الحديث النبوي

---

(١) سورة آل عمران، الآية ٩٧

المتفق عليه وهو فرض على المستطيع استطاعة بدنية ومالية. والحاج حين يحرم من ميقاته المكاني يتجرد من ملابسه المخيط والمحيط ليؤدي مناسك حجه، بدءا بالطواف بالبيت العتيق سبعا ثم ركعتين يصليهما الحاج بمقام إبراهيم إذا تيسر له، وإلا في أي مكان داخل المسجد الحرام، ثم السعي بين الصفا والمروة سبعا، ثم الصعود إلى عرفة يوم التاسع من ذي الحجة ثم رمى الجمرات الكبرى والوسطى والصغرى، ثم طواف الإفاضة، وبذلك تم جميع مناسك الحج.

والحج كان معروفا قبل الإسلام، ولكنه كان مشوبا بالإشراك بالله تعالى. فقد كانت الكعبة غاصة بالأصنام والأوثان التي عبدها المشركون، معتقدين أن عبادتهم للأصنام تقربهم إلى الله زلفى. وقد جاء الإسلام ليحق الحق ويدمغ الباطل معلنا دولة التوحيد محطما الأصنام التي علت جدران المسجد الحرام. فالإسلام لم يلغ فريضة الحج، وإنما طهرها مما علق بها من أدران الشرك والوثنية، وكيف ينهي الإسلام عن حج بيت الله الحرام، والله عز وجل أمر خليله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يعلن للناس كافة فريضة حج بيت الله الحرام، "وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩)"[1].

نعم، إن الله جل شأنه لا يأمر إلا بكل ما يعود على الأمة المستخلَفة بالخير والصلاح والفلاح، فالحج فريضة سنوية يجتمع في رحابها جمع غفير من الحجاج ليتعارفوا متباحثين ودارسين قضايا ومشكلات الأمة، وما يواجهها من مؤامرات ودسائس وتحديات خارجية تكيد لها كيدا متربصة بها، واضعين الحلول الملائمة لنصرة المسلمين في جميع أرجاء الوطن الإسلامي. أجل إن الحج فريضة ركنية وفي الوقت نفسه مؤتمر سنوي يتيح لحكام المسلمين التجمع في مناخ روحي شفاف إلا يذكرهم -- وهم طائفون الكعبة المشرفة ساعون بين الصفا والمروة - ألا يذكرهم فقدان المسلمين مسجدهم الأقصى الأسير مسرى رسولهم صلى الله عليه وسلم ومعراجه وأولى القبلتين، إلا يعقدون العزم المخلص والإصرار الجاد على استعادة الأقصى من أيدي سجنائه وغاصبيه ولكن هل يحدث شيء من ذلك أو أقل

(1) سورة الحج، الآيات: ٢٦-٢٩.

من ذلك بين حكام ورؤساء المسلمين كلا!!، فعار على المسلمين الذين يبلغ تعدادهم أكثر من مليار مسلم. أن يظل ثاني المسجدين حبيسا ومهددا بالهدم والتخريب بين لحظة وأخرى، ولا نملك إلا بكاء الثكالى ولطم الخدود وشق الجيوب

❁ ❁ ❁

وكما سبق ما قلناه في فريضة الصلاة والصيام وارتباطهما الوثيق بقضية الأخلاق السلوكية، نقول هنا أيضاً أن الحج كركن من أركان الإسلام يرفض كل خلق يتعارض مع روح الإسلام يقول الحق تبارك وتعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ ولا فُسُوقَ ولا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى واتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ"(1).

ويقول صلى الله عليه وسلم: "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه، الرفث: الجماع. الفسوق: المعاصي والجدال: المراء بالباطل.

وأهم ركن من أركان الحج هو الوقوف بعرفة، والتعريف الفقهي للحج هو حضور الحاج جزءاً من عرفة ليلا يوم التاسع من ذي الحجة، وأهمية هذا الركن نابعة أن من فاته حضور عرفة في هذا اليوم فلا حجة له. يقول صلى الله عليه وسلم: الحج عرفة، فباقي شعائر الحج مثل رمي الجمرات أو المبيت بمنى أو بالمزدلفة، ينجبر تركها بالهدى، أما عرفة فلا – وقد اكتسبت عرفة أهميتها، فيما نعتقد لأنها أولا على صعيد عرفة تتأكد المساواة بين البشر من الحجاج جميعا، ولا سيما وكلهم في ملابس الإحرام البيضاء، فلا فرق بين حاكم ومحكوم ولا بين فقير وغني، ولا بين أبيض وأسود، ولا بين ذي منصب اجتماعي وأشعث أغبر، إن معنى الآية الكريمة "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ" متحقق ومتجسد مرئي وملموس بالحواس الخمس، وكأنه هو الدرس المستفاد من عرفة، والمطلوب إسلاميا تطبيقه وممارسته حياتيا، عندما يعود هؤلاء الحجاج إلى أوطانهم، فلا تكبر ولا استعلاء ولا تفاخر بالأموال والوظائف والقصور والضياع فالجميع من تراب وإلى تراب "تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ ولا فَسَادًا والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"(2).

---

(1) سورة البقرة، الآية ١٩٧

(2) سورة القصص، الآية ٨٣

الفصل الثاني

الشـــريعـــة

الشريعة

خلق الله تعالى الخلق، ولم يتركهم – برحمته – هملا يتدبرون حياتهم الدنيوية بأنفسهم، بل إنه – سبحانه – أرسل إليهم من يأخذ بيدهم ليهدوهم إلى سبيل الحق والفلاح والصلاح، فبعث إليهم – جل وعلا – أنبياء ومرسلين من أنفسهم، وأنزل معهم كتبا ليستنيروا ويهتدوا بنورها، ولا سيما بعد انتقال الرسل الذين أنزل إليهم تلك الكتب إلى الرفيق الأعلى، وقد كان الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام يدعون قومهم أول ما يدعون إليه – إلى عبادة الواحد الأحد ونبذ كل ما سواه سبحانه – من الأصنام والأوثان بالحكمة والموعظة الحسنة، وكانوا عليهم السلام قدوة حسنة في مكارم الأخلاق الربانية، هذه الأخلاق التي كانت برهانا ساطعا ودليلا قاطعا على حق وصدق دعوتهم، على الرغم مما ووجهوا به ممن يدعونهم إلى الصراط المستقيم من تكذيب وصد وإعراض واستهزاء مقرونة بجميع صنوف الأذى المادي والمعنوي والنفسي، وقد بدأ تاريخ النبوة والرسالة بأبي البشر آدم عليه السلام وانتهى بخاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، المبعوث إلى الناس كافة لحكمتين عظميين أولاهما: كما ذكرنا رحمة وشفقة بالعالمين ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وثانيتهما: إقامة الخلافة الإلهية في الأرض. هذه الخلافة التي أصولها وأسسها مستمدة ومستقاة من أسماء الله الحسنى وصفاته أجلها أعظمها الوحدانية والرحمة والصدق والعدل والعزة والكرامة والسلام. والحكمة والعفو والمغفرة والعلم والقوة، وغيرها من الخصال والأخلاق الكمالية الربانية، فإذا تسيدت هذه القيم العليا في الحياة البشرية كانت طاعة الله عز وجل وتقواه والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه هي الحاكمة والحكم والقول الفصل للحياة الإنسانية، ورب قائل يقول هل يعني ذلك اختفاء الشر من الأرض، وشيوع الخير فيها، وبعبارة أخرى هل إقامة خلافة الله في دنيا الناس تعني ملائكية المجتمع البشري؟ نقول: كلا إن الإنسان هو الإنسان من عصر ما قبل التاريخ وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها وإلا إذا كان الأمر لم يكن كذلك لما قتل قابيل أخاه هابيل ولما ألقى أخوة يوسف أخاهم في غيابة الجب، ولكن على الرغم من صحة ذلك، فإننا نود أن نقول – مؤكدين – إنه من الصحيح والمشاهد الواقعي أن انتشار

وشيوع وإقامة العدل في الأرض، العدل بمعناه الشامل والمطلق: العدل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والدولي العدل المقرون والمصاحب بالأخلاق التي تحترم وتوقر إنسانية الإنسان وكرامته وآدميته، نقول كل هذه القيم والمعايير العليا إذا حكمت الحياة الإنسانية، فمما لاشك فيه، أن المظاهر السلبية والمخزية لا ندعى أنها زائلة من دنيا الناس، ولكن نقول إنها ستنمحي وتتراجع نسبيا بصورة حقيقية وملموسة وواقع المجتمعات قديما وحديثا شاهد يدل على ذلك فدولة من الدول المعاصرة تزداد فيها نسبة جريمة القتل من أجل السرقة، وانتهاك حرمة المال العام. وجريمة الانتحار يأساً من الحياة. ودول أخرى تقل فيها نسبة هذه الجرائم أو تنعدم، في خلافة عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – افتقدت مصارف زكاة المال الشرعية، فلم يوجد مستحق للزكاة، ولما عرض هذا الأمر على أمير المؤمنين وهو عمر بن عبد العزيز أشار إلى العاملين بأمر الزكاة أن يعتقوا بأموال الزكاة هذه رقاب الأرقاء. لعل ذلك مثال ونموذج حي للعدالة الاجتماعية أولا ولعدالة الدولة سياسيا واقتصادياً ثانياً.

إذن إن فشل سياسة دولة ما في إدارة ورعاية شئون شعبها كفيل ومؤد إلى ظهور كل ما ينغص ويشقي ويكدر على البشر حياتهم الأمر الذي يدعو إلى الغضب والعصيان بل والثورة على طغيان الحكام وظلمهم، فالفقر أو الحرمان من ضروريات الحياة كان عاملاً مهماً للثورة الفرنسية. وديكتاتورية شاه إيران السابق واستبداده كان سببا قوياً لقيام الشعب الإيراني بثورته الإسلامية، وكما سبق ثورة ٢٥ يناير وما تلتها من ثورات في دول عربية وغير عربية كانت من أسبابها الاستبداد السياسي وغياب العدالة الاجتماعية.

من أجل ذلك، أي من أجل أن يحيا الإنسان في هذه الدنيا حياة مطمئنة، شرع الحق العدل تبارك وتعالى المبادئ الجديرة بتحقيق معاني هذه الحياة، ومن هذه المبادئ والقيم العظيمة التي تدعم وتؤصل بنيان وقواعد الخلافة الربانية: العدل والشورى اللذان سنقتصر الحديث عليهما في هذا الفصل وذلك لأهميتهما وخطورتهما ولافتقاد أو حرمان كثير من مجتمعاتنا المعاصرة دورهما الفعال والإيجابي في صنع مجتمع المساواة بين الرئيس والمرؤوس والفقير والغني والمسلم وغير المسلم في الحقوق والواجبات والتمتع بالوظائف والمناصب القيادية وأن يكون معيار الاختيار في هذه المناصب هو الكفاءة والتقديرات العليا للمؤهلات الجامعية وليس معيار المحسوبية والرشوة وقرابة مسئول كبير.

أولاً: العدل:

ونعني بالعدل العدل الإسلامي الذي يحدد الحق تبارك وتعالى في كتابه العزيز معياره وميزانه وهو المساواة المطلقة فإذا قرأنا قوله – سبحانه – "وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ"[1]، وقوله جل شأنه عن قصة سيدنا نوح عليه السلام "وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (٤١) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤) وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ"[2].

كما ذكرنا أن الآية الأولى في سورة البقرة والآيات الأخرى في سورة هود تؤكد أن المقوم أو المقدّر الوحيد والحكم العدل عند المليك المقتدر هو المساواة، وليس صلة النسب أو القربى أو وشيجة المصاهرة التي تربط إنسانا ذا منزلة عظمى عند خالق السموات والأرض مثل الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، فذرية سيدنا إبراهيم خليل الله إذا كانوا صالحين متقين فبها ونعمت وإلا فلا. كما أن ابن سيدنا نوح عليه السلام، لما لم يؤمن بأبيه رسولا انفصل عن آل أبيه وأهله. فآل كل نبي وأهله هم الذين آمنوا برسالته واتبعوه، كما قال رسولنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم: سلمان منا آل البيت وصهيب منا آل البيت وبلال منا آل البيت، فكان قوله عز وجل ردا على سيدنا نوح "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ" من هذا المبدأ الإلهي الذي لا يقيم وزنا لصلة النسب أو الدم عند غياب الصلة الإيمانية التي هي أقوى الأواصر والروابط. لذلك لم تشفع صلة الأبوة أو البنوة لابن نوح من النجاة من الغرق – ومثل صلة النسب والدم صلة الاقتران والزوجية، إذا لم تصاحبها أخوة الإيمان فإنها لا تجدي في النجاة من عذاب الآخرة "ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٢٤.

(٢) سورة هود، الآيات: ٤١-٤٧.

مِنَ اللهِ شَيْئًا وقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ"[1]، ونلحظ أن انتفاء الإيمان عن أحد الزوجين لم يحقق الزوجية المتكاملة، فالتعبير القرآني المعجز عبر عن زوجي نوح ولوط عليهما السلام بالمرأتين ولم يقل زوج نوح وزوج لوط. كذلك وفي الآية التالية "وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ونَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وعَمَلِهِ ونَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"[2]، أما الزوجية المتكاملة فالتعبير القرآني يأتي هكذا "وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ"[3] والله أعلم.

إذن أن العدل في شريعة الإسلام هو ما يحقق المساواة المطلقة، فلا يميز بين صديق وعدو، أو بين مسلم وغير مسلم، أو بين فقير وغني، أو بين ذي سلطان ونفوذ وبين أشعث أغبر ذي طمرين ترده الأبواب، والقضية التي تعرض لها القرآن وحكم فيها ببراءة يهودي ضد مسلم من الأنصار، تؤكد بكل أدوات التوكيد واليقين أن لا معايير أو موازين مزدوجة في الأمة المستخلَفة خير أمة أخرجت للناس؛ وإلا كيف حكم القرآن من فوق سبع سموات ببراءة رجل ينتمي إلى فئة ذات عصبية حاقدة على الإسلام والمسلمين تكيد لهم بكل أدوات الكيد والمكر والهدم والفرقة ألا وهم اليهود، وفي الوقت نفسه يحكم بإدانة رجل من الصف المسلم، أوليس ذلك هو العدل المطلق في سموه ونبله وعظمته، العدل المطلق المبرأ من المعايير والحلول المزدوجة، والقصة مجملة هي أن رجلا من الأنصار يقال له "رفاعة، سرقت درعه، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت (بنو أبيرق) فقال صاحب الدرع إن طعمة من أبيرق سرق درعي، فلما سمع السارق ذلك ألقى الدرع في بيت رجل يهودي اسمه "زيد بن السمين" وقال لعشيرته إني ألقيت الدرع في بيت ذلك اليهودي، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلين يا نبي الله إن صاحبنا برئ وإن الذي سرق الدرع فلان اليهودي، ولما عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن ابيرق على رؤوس الناس، ثم نزلت الآيات القرآنية مبرئة اليهودي بدءا من قوله تعالى: "إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ولا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا (١٠٥) واسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٠٦) ولا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا (١٠٧) يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ وهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ

---

(١) سورة التحريم، الآية: ١٠.
(٢) سورة التحريم، الآية: ١١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٣٥.

القَوْلِ وكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (١٠٩) ومَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠) ومَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) ومَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وإِثْمًا مُّبِينًا (١١٢) ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ ورَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ومَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ ومَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (١١٣)"[1].

مما لاشك فيه أن القرآن كأول مصدر من مصدر التشريع الإسلامي حين يبرئ شخصا غير مسلم مُدينا خصمه المسلم، إنما يؤكد ويقرر أن خلافة الله في الأرض كمنهج حياة، العدل المطلق لحمته وسداه ليست خاصة بالمسلمين وحسب، وإنما للإنسانية قاطبة، ألم يقل مُنزل القرآن – سبحانه – مخاطبا الذي أنزل عليه كتابه – صلى الله عليه وسلم – "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"[2]، "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا"[3] وهذا لا يعني إطلاقا أن الإسلام يُكره الناس على اعتناق الإسلام، وإنما يعني أن حضارة الإسلام المرتكزة على العدل والمساواة يحيا في ظلالها الناس كافة. وما نستعرضه من مواقف تاريخية إنما هي مستهدية ومقتدية ومطبقة في واقع الحياة بما يدعو إليه القرآن أنه لا محاباة ولا استثناء في تطبيق شريعة عدل الله العليم الحكيم.

- لما سرقت – في العهد النبوي – امرأة تنتمي إلى أسرة عريقة في ذلك الوقت، تسمي المخزومية، وسرقتها هذه مستوفية شروط حد السرقة الذي يوجب قطع اليد، الذي يعرضها لإعلان وإثبات أنها سارقة، بما فيه من مهانة لها ولأسرتها ذات المجد التليد، واستعظم الناس ذلك وخاصة ذويها فأرادوا أن يلتمسوا مخرجا ينقذها من تنفيذ الحد فلجأوا إلى الصحابي الجليل أسامة بن زيد حب الرسول صلى الله عليه وسلم ليشفع لهم، فاستجاب أسامة لمطلبهم وحدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي غضب غضبا شديدا وكان عليه الصلاة والسلام لا يغضب إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله وقال لأسامة: أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة، والله لو سرقت فاطمة بنت

---

(١) الآيات التي تناولت القصة من ١٠٥-١١٣ من سورة النساء.
(٢) سورة الأنبياء، الآية:١٠٧.
(٣) سورة سبأ، الآية ٢٨

محمد لقطع محمد يدها، إنما هلك من كان قبلكم كان إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد. ثم أقيم على المخزومية الحد.

- بعد انتقال الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – إلى الرفيق الأعلى تولى أمر المسلمين أبو بكر الصديق – رضي الله عنه – بعد أن نال موافقة المسلمين مهاجرين وأنصارا على القيام بأعباء ومسئولية الخلافة، وفي أول خطاب له – رضي الله عنه – وجهه إلى المسلمين قال: **"أيها الناس قد وُليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه. والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم رحمكم الله"**[1].

يعد هذا الخطاب أول خطاب من أول مسئول تولى أمر الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والخطاب على إيجازه إلا أنه إيجاز بليغ جمع حدود ونطاق مسئولية الحاكم، وإعلان المساواة المطلقة دون استثناء بين غني وفقير أو قوي وضعيف وقد تصدر الخطاب بتأكيد تواضع الخليفة بأنه إذا تحمل أعباء الحكم والقيادة، فهذا لا يعني تفضله أو تميزه على سائر الناس، في توجيه ينم عن تحذيره إلى كل من تسولت له نفسه من الرؤساء والحكام الذين يتبعون فرعون وهامان وقارون في استكبارهم وعتوهم وعلوهم في الأرض فسادا وإفسادا وجبروتا. ولا عجب في ذلك أو ليس الصدّيق أبو بكر وسياسته ومنهجه إلا هدى وسنة وشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

- الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – تولى الخلافة بعد الصديق أبي بكر، وما دام حديثنا عن عدل الإسلام المطلق الذي لم يميز مسلما عن غير مسلم، فيجدر بنا أن نرى موقف أمير المؤمنين بعد أن وفقه الله تعالى بفتح بيت المقدس الذي ضم بين جنباته الكثير من الذميين من أهل إيلياء الذين ضمن لهم الفاروق حقوقهم الأمنية والدينية والمالية في وثيقة جاء فيها **"هذا ما أعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمنا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أنه لا يسكن كنائسهم، ولا تهدم ولا ينتقص منها لا من خيرها ولا من صلبانهم ولا من شيء من أموالهم"**.

---

(١) الكامل لابن الأثير.

إن الغرب الدائم الباكي والمتباكي على حقوق الإنسان الضائعة والمضيَّعة في الدول العربية والإسلامية، متهما الإسلام بذلك لأن الإسلام – في زعمهم – عدو للآخر وخاصة إذا كان هذا الآخر غير مسلم !! فليعلموا أن اتهامهم للإسلام اتهام مفتري وباطل لأن اتهامهم إما نابع عن جهلهم بتاريخ الإسلام حيال الآخر غير المسلم، وإما مصدره التجاهل والتعامي والحقد الأسود على دين العدل والحق والإنصاف.

إن ما قدمناه من موقف عمر بن الخطاب تجاه أهل إيلياء غير المسلمين غيض من فيض العدالة الإسلامية ومما سنعرضه لاحقا؛ قائلين للذين يرون الحق باطلا والباطل حقا. قارنوا موقف عمر بن الخطاب تجاه سكان إيلياء الذميين السابق ذكره، وموقف الصليبيين عند احتلالهم بيت المقدس وقتلهم من المسلمين أكثر من سبعين ألفا إلى أن وصف المؤرخون أن دماء القتلى ارتفعت إلى الركبتين، أتدرون بالفرق بيننا وبينكم؟ الفرق أن انتصارنا لا ينسينا حقوق الآخرين المنهزمين وإن كانوا على غير ديننا، أما انتصاركم فمحكوم بالجهل والحقد والانتقام الجبان.

• ما زلنا في صحبة أمير المؤمنين الفاروق عمر. أو بعبارة أدق في صحبة عدالته المطلقة التي لم تقتصر ظلالها الوارفة على الجزيرة العربية وحدها، إنما امتدت واتسعت الدولة الإسلامية فهذا هو عمرو بن العاص الوالي – من قبل أمير المؤمنين عمر – على مصر تسابق ابن عمرو بن العاص والي مصر وشاب مصري من عامة الشعب غلب ابن الوالي في سباقهما فما كان من ابن عمرو إلا أن لطم المصري قائلا له: خذها وأنا ابن الأكرمين، الأمر الذي دعا والد المصري لأن يتوجه لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب في المدينة المنورة شاكيا ابن والي مصر الذي لطم ابنه، فاستدعى أمير المؤمنين عمر الفاروق حاكم مصر وابنه، وجعل الشاب المصري أن يقتص من ابن عمرو بن العاص (بأن يلطمه كما لطمه) ثم قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كلمته الخالدة التي ما زال صداها في أذن الإنسانية: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا".

إن الدول الغربية – في عصرنا الحالي – تتباهى علينا بين الحين والآخر بجنة الديمقراطية والحرية والعدالة والمساواة التي يتمتعون بها. وأن حكامهم وملوكهم غير مستثنين من تطبيق القانون؛ بل يتعرضون عند مخالفتهم لهذا القانون للمساءلة والاستجواب وأحيانا للعزل والإقالة الأمر الذي لا يحدث مثيل لها في الدول العربية والإسلامية، ونحن نعترف لهم ذلك بكل سماحة وطواعية ولكننا نرد عليهم قائلين: أولاً أن عدالتكم التي تتحدثون عنها هي عدالة لا تتجاوز حدودكم الجغرافية والإقليمية، أما

خارج هذه الحدود وتجاه الدول العربية والإسلامية خاصة فنرى المعايير والموازين المزدوجة، والكيل بمكاييل المصلحة المادية الصرفة.

ثانياً: إن عدالتكم التي تحكم أوطانكم مستعارة ومجلوبة ومسبوقة بأربعة عشر قرنا هي عمر العدالة الإسلامية التي نقدم هنا بعضا من معالمها الحضارية والإنسانية.

• تقدم يهودي بشكوى ضد علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه – ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأول من أسلم من الصبيان، ومن المجاهدين في الله حق جهاده، علي بن أبي طالب على الرغم من مكانته ومنزلته العظيمة مثل مع خصمه اليهودي أمام القاضي عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي خاطب عليا بكنيته قائلا: يا أبا الحسن حسب عادته والخطاب بالكنية أسلوب من أساليب التكريم للمخاطب وفي الوقت نفسه خاطب القاضي اليهوديَّ باسمه المجرد وهنا ظهرت على عليّ بن أبي طالب أمارات الغضب، أو عدم الرضا فقال له: أمير المؤمنين: أكرهت أن يكون اليهودي خصمك، وأن تمثل معه أمام القضاء، فقال: علي الذي يضرب به المثل والقدوة العلمية في أحكام القضاء والتقاضي فقيل قضية ولا أبا الحسن لها، قال علي ردا على أمير المؤمنين: **لا ولكنني غضبت، لأنك لم تسو بيني وبينه في المخاطبة، فخاطبته باسمه، وخاطبتني بكنيتي.**

أجل إن علي بن أبي طالب يرى أن العدالة ليست فقط أن يمثل علي بن أبي طالب أمام ساحة القضاء وإن كان خصمه يهوديا، بل إن عدالة الإسلام تقتضي ألا يفرق أو يميز القاضي أحد الخصمين عن الآخر ولو كانت هذه التفرقة في أسلوب المخاطبة والمحادثة، هذه هي حضارة الإسلام وعدله وإنصافه التي لا تدعو إلى مطلقية العدل وحسب، بمعنى إدانة وتجريم الخصم ولو كان من الصف المسلم، وتبرئة الخصم وإطلاق سراحه ولو كان من الصف المعادي للإسلام. كما رأينا في واقعة الدرع المسروقة التي عرضها الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بل إن الإسلام يرقى ويسمو إلى أبعد من ذلك، فما دامت المحكمة أو المحاكمة مجالاً لإظهار الحق وإبطال الباطل، فينبغي – إسلاميا – أن تكون محاورة ومناقشة الخصوم بأسلوب لا انحياز ولا محاباة لخصم، مهما كانت مكانة هذا الخصم الاجتماعية أو المادية أو العلمية، والإسلام حين يدعو إلى ذلك، إنما يدعو انطلاقاً من دعوته ومبدئه وهو تكريم الإنسان من حيث هو إنسان دون اعتبار لعقيدته الدينية أو طبقته الاجتماعية أو العرقية.

ذلك أن الإنسان هو المؤهَّل والمُعَدّ لحمل مهام وأعباء والتزامات خلافة الله تعالى في

الأرض، ومن مقومات وخصائص هذه الخلافة التكريم الذي حظي به الإنسان من قبل من عهد إليه بهذه الخلافة الله العليم الحكيم جلت قدرته وتعالت أسماؤه.

• عن سالم بن عبد الله قال: نظر عمر – رضي الله عنه – إلى رجل أذنب ذنبا فتناوله بالدّرة. فقال الرجل: يا عمر: إن كنت أحسنت فقد ظلمتني، وإن كنت أسأت فما علمتني فقال: صدقت فاستغفر الله لي، فاقتص من عمر، فقال الرجل: أهبها لله غفر الله لي ولك"(١).

• عن العتبي قال: بُعث إلى عمر بحلل فقسمها فأصاب كل رجل منه ثوبا، ثم صعد المنبر وعليه حلة (والحلة ثوبان) فقال: أيها الناس ألا تسمعون. فقال سلمان – رضي الله عنه – لا نسمع. فقال عمر: ولم يا أبا عبد الله، قال: إنك قسمت علينا ثوبا ثوبا، وعليك حلة، فقال: لا تعجل يا أبا عبد الله. ثم نادي على عبد الله، فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر. فقال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: الثوب الذي ائتزرت فيه هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم. فقال سلمان: الآن فقل نسمع"(٢).

هذه بعض صور ونماذج العدل الإسلامي التي حكمت الدولة الإسلامية، ومن أراد المزيد فعليه الرجوع إلى المصادر التاريخية الأخرى.

قد يقول قائل هذه الصور المشرقة من العدالة الإسلامية اقتصرت على عصر النبوة والخلافة الراشدة، أما بعد أن صارت الخلافة ملكا عضوضا في العهد الأموي على وجه التحديد، وكذلك في العصر العباسي، فإننا نشهد ليس غيابا ملحوظا لعدل الإسلام وحده، وإنما افتقاد ومخالفة كثير لمبادئ الإسلام وقيمه الأخلاقية والاجتماعية.

نقول نعم على الرغم من أن هذه الرؤية وإن كانت سالبة جزئية وليست سالبة كلية على رأي المناطقة فهي ذريعة أو ثغرة واهنة وواهية أو هي من بيت العنكبوت للذين يودون أن ينالوا من مفهوم الدولة الإسلامية وصلاحية تطبيقها في مختلف الأزمنة والأمكنة.

إن الدولة الأموية بداية من ولاية معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – إلى خلافة خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه – وإن كانت متهمة ببعض التجاوزات إلا أنها أيضاً تميزت ببعض الإنجازات والانتصارات التاريخية أوصلت

---

(١) مناقب عمر لابن الجوزي.
(٢) المصدر السابق.

التجاوزات إلا أنها أيضاً تميزت ببعض الإنجازات والانتصارات التاريخية أوصلت الإسلام إلى تخوم فرنسا إلى أن تولي الإمام العادل عمر بن عبد العزيز فكانت ولايته وخلافته توبة نصوحا لذنوب وأخطاء بعض الحكام الأمويين السابقة، بل كان عصر عمر بن عبد العزيز عودا حميدا لسياسة وعدل جده عمر بن الخطاب – رضي الله عنه.

أما العصر العباسي فقد تميز بقوة الدولة الإسلامية العسكرية والسياسية، وازدهار العلوم والآداب والفلسفة. ويطيب لنا أن نكتفي بشهادة منصفة وعادلة لمؤرخ أجنبي له وزنه وثقله ومكانته، إنه ول ديورانت مؤلف موسوعة (قصة الحضارة) شهادة حق ليست خاصة بعهد الخلفاء الراشدين، وإنما ممتدة إلى عصر الخليفة المأمون.

يقول ول ديورانت: "إن الخلفاء الأولين من أبي بكر إلى المأمون قد وضعوا النظم الصالحة الموافقة للحياة الإسلامية في رقعة واسعة من العالم، وأنهم كانوا من أقدر الحكام في التاريخ كله. ولقد كان في مقدورهم أن يصادروا كل شيء، وأن يخربوا كل شيء كما يفعل المغول أو المجر، أو أهل الشمال من الأوروبيين، لكنهم لم يفعلوا هذا، بل اكتفوا بفرض الضرائب. ولما أن فتح عمرو مصر أبى أن يستمع إلى نصيحة الزبير حين أشار إليه بتقسيم أرضها بين العرب الفاتحين، وأيده الخليفة في هذا الرأي، وأمره أن يتركها في أيدي الشعب بتعهدها، فتثمر، وفي زمن الخلفاء الراشدين مسحت الأراضي واحتفت الحكومة بسجلاتها، وأنشئت عدد كبير من الطرق، وعنيت بصيانتها، وأقيمت الجسور حول الأنهار لمنع فيضانها وكانت العراق قبل الفتح الإسلامي صحراء جرداء، فاستحالت أرضها بعده جنانا فيحاء، وكان كثير من أرض فلسطين قبيل الفتح رملا وحجارة، فأصبحت خصبة غنية عامرة بالسكان وما من شك في أن استغلال المهرة والأقوياء للسذج والضعفاء بقي في عهد الحكومات الإسلامية، كما يبقى في عهود كل الحكومات لكن الخلفاء قد أمنوا الناس إلى حد كبير على حياتهم وثمار جهودهم وهيأوا الفرص لذوي المواهب ونشروا الرخاء مدة ستة قرون في أصقاع لم ترقط مثل هذا الرخاء بعد عهدهم، وبفضل تشجيعهم ومعونتهم انتشر التعليم وازدهرت العلوم والآداب والفلسفة والفنون ازدهارا جعل آسيا الغربية مدة خمسة قرون أرقى أقاليم العالم حضارة"[1].

نعم، كما قال ديورانت إن إصلاح الإسلام الحياة الإنسانية لم يتوقف بدءا من أول خليفة في الإسلام وهو أبو بكر الصديق إلى عصر الخليفة العباسي المأمون. على الرغم كما

(1) قصة الحضارة. ول ديورانت جـ٢ مجلد ٤ ص١٢

الخلافة الراشدة، ناهيك عن العصر النبوي، ومرجع ذلك إلى عدم غياب دور الإسلام كنظام خلافة الله في الأرض، وإلى قوة الإسلام الذاتية والكامنة في منهجه الحيوي والخلاق الذي تهفو إليه الفطرة الإنسانية السليمة، إنه على الرغم من ضعف وتخلف الدول الإسلامية في عصرنا الحاضر بالنسبة إلى الدول الغربية، فإن ذلك لم يحل دون اعتناق كثير من هذه الدول الغربية والولايات المتحدة الأمريكية – الإسلام عن اقتناع عقلي وإيمان صحيح دون إكراه أو ضغط أو إجبار من أحد.

إنه حقا وصدقا قوة الإسلام الذاتية كما أن عدد من اعتنقوا الإسلام بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ تفوق الأعداد من المسلمين الذين دخلوا الإسلام قبل هذه الأحداث، على الرغم من الدعاية المضادة للإسلام التي اشتعل سعارها متهمة المسلمين بتدبير هذه الأحداث.

ثانياً: الشورى:

"إن الشورى إذا كانت في قضايا السلم والاستقرار واجبة فهي في المسائل الحربية والعسكرية والاستنفار لملاقاة العدو أكثر حتمية ووجوبا لعاملين مهمين هما:

أولاً: أن القتال سبب مباشر لإراقة الدماء، وخراب لاقتصاد الأمة ورخائها المادي. صحيح أن الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى من أفضل الأعمال الصالحة، فالشهادة في سبيل الله مبتغى وأمنية كل مسلم، ولكن القتال لا يشرع إلا لضرورة ملحة تمليها اعتبارات سياسية واقتصادية وعسكرية وأمنية، لذلك كله كانت المشورة للحرب أشد لزوما، وأكثر أهمية.

ثانياً: إن الشورى وقاية وصون للأمة من الاندفاع الأعمى تجنيا للخسران والهزيمة، وعدم تحقيق أهداف الحرب، وعندما ظلم المسلمون الأوائل في أنفسهم وأموالهم وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله لم يكن بد من مشروعية القتال "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ"(١) لذلك "قبل أن يتوجه عليه الصلاة والسلام وأصحابه الأبرار لملاقاة قريش في غزوة بدر، استشار أستاذ البشرية محمد صلى الله عليه وسلم المهاجرين في هذا الأمر المصيري الذي يتعلق بحياة الإسلام ومستقبله قبل أن يتعلق بحياة المسلمين "

---

(١) سورة الحج، الآيتين: ٣٩، ٤٠.

فتكلم المهاجرون وأحسنوا، ثم استشارهم ثانياً: فتكلموا فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثاً: وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يريد رأي الأنصار، وفهمت الأنصار ذلك فبادر سعد بن معاذ فقال يا رسول الله كأنك تعرض بنا فكان صلى الله عليه وسلم – فعلا – إنما يعنيهم لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود في ديارهم فلما عزم على الخروج استشارهم ليعلم ما عندهم فقال له سعد لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى عليها أن لا تنصرك إلا في ديارهم، وإني أقول عن الأنصار، وأجيب عنهم فأظعن حيث شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك؛ وقال له المقداد: لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكنا نقاتل عن يمينك ومن شمالك ومن بين يديك، ومن خلفك، فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسُر بما سمع من أصحابه، وقال: سيروا وابشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، وإني قد رأيت مصارع القوم "تلك كانت استشارة الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الإقدام على الجهاد في سبيل الله، دفاعا عن منهج لا إله إلا الله محمد رسول الله"(١).

"ولم يكتف رسول الله صلى الله عليه وسلم باستشارة أصحابه قبل الحرب، بل كان يستشيرهم في اختيار المواضع الصالحة، أو المواقع الإستراتيجية بلغة العسكرية الحديثة – للجيش المسلم، فلما نزل عليه الصلاة والسلام موضعا معينا أو نقطة عسكرية، جاءه الحباب بن المنذر فقال: يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال النبي صلى الله عليه وسلمك بل هو الرأي والحرب والمكيدة. فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القليب، ثم نبني عليه حوضا فنملأه ماء ثم نقاتل القوم. فنشرب ولا يشربون. فقال رسول الله: "لقد أشرت بالرأي" ، فنهض ومن معه من الناس فساروا حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقليب فتغورت وبني حوضا على القليب الذي نزل عليه، فملأه بالماء. وقد طبق رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ الشورى تاركا لأصحابه – رضوان الله عليهم – الموافقة أو معارضة قرار مجابهة العدو الموافقة والمعارضة بالاختيار الحر الذي لا قيد فيه ولا ضغط ولا

---

(١) لا إله إلا الله محمد رسول الله حضارة ومنهج حياة للمؤلف.

إكراه"[1] وقبل واقعة "أحد" شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه أيضاً، وكان عليه الصلاة والسلام يرى عدم الخروج لملاقاة قريش خارج المدينة، ولكن بعض الصحابة وخاصة الشباب فضلوا قتال العدو خارج المدينة دفعهم إليه الحماس الشبابي، فنزل صلى الله عليه وسلم موافقا لرأيهم، ونزل الأمر الإلهي بعد هذه الغزوة بالشورى في قوله تعالى: "وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ"[2]، ليدل على أنه لم يبق في قلبه أثر من تلك الواقعة، كما يقول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله. ومشاورة ولي الأمر للأمة توجب علو شأنها ورفعة درجتها والمحبة والمودة بين الحاكم والمحكومين، ولا سيما إذا كان المستشير الرسول صلى الله عليه وسلم الموحي إليه من قبل العزيز الحكيم عالم الغيب والشهادة تباركت أسماؤه، فما بالك بغيره من الرؤساء والزعماء المستبدين بآرائهم والانفراد به غير مكترثين ولا آبهين بآراء شعوبهم، وهذه السياسة التي تنبذ فضيلة الشورى وتلقيها وراء ظهرها هي التي أوصلتنا إلى هزيمة ١٩٦٧، وإذا كان الدكتور عبد الصبور شاهين – رحمه الله تعالى – يرى في مقدمته – مترجما كتاب "دستور الأخلاق في القرآن" – وهو رسالة الدكتوراه للدكتور/ محمد عبد الله دراز.

يرى الدكتور/ شاهين أن "انهيار فرنسا أمام الزحف النازي في يوم وليلة – إنما كان انهيارا أخلاقيا في جوهره، كما لاحظ ذلك بحق المارشال بيتان رئيس الجمهورية الفرنسية إبان الاحتلال في رسالته التي وجهها إلى ضمير الأمة الفرنسية صبيحة الهزيمة أو عشيتها. ونحن إذ نوافق الدكتور عبد الصبور في أن الانهيار الأخلاقي في فرنسا كان سببا في هزيمتها العسكرية فلا نوافقه في "أن ما حل بالأمة العربية من هزيمة عام ١٩٦٧ أمام قوى الصهيونية العالمية قد أشار إلى ضرورة اللجوء إلى الحل الأخلاقي قبل البحث عن المهارات والفنون التكنولوجية وذلك بعد أن تأكد للجماهير أن الهزيمة كانت انحلالا أو إفلاسا في الأخلاق، مهما تبرقعت بأسباب السياسة أو التكنولوجيا، وربما نوافق الدكتور شاهين إذا كان يعني بانحلال الأخلاق افتقاد الشورى، مشاورة الرئيس قبل الإقدام على الحرب – المجلس النيابي الحر (البرلمان) نوافقه إذا اعتبر الدكتور الشورى من أخلاقيات السياسة، إننا نعتقد أن هزيمتنا في عام ١٩٦٧ كان سببها الجوهري غياب الشورى وحرية مساءلة الحاكم؛ وقد أوضحنا ذلك في كتابنا "لا إله إلا الله محمد رسول الله حضارة ومنهج حياة" الصادر عام ٢٠٠٠ عن المكتب المصري الحديث ويمكننا أن نوجز ما جاء في ذلك

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٥٩.

الكتاب بخصوص هزيمة ١٩٦٧ في النقاط التالية:

• في عام ١٩٦٧ أصدر رئيس مصر في ذلك الوقت قرارا بإغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية.

• القرار السابق بإغلاق خليج العقبة ١٩٦٧ بأمر من الرئيس نفسه الذي أذن لإسرائيل عام ١٩٥٦ وعقب انتهاء المعارك العسكرية – باستخدام إسرائيل هذا الخليج الذي كان محظورا عليها قبل ذلك، بالإضافة إلى منح إسرائيل أيضاً أرضاً مصرية هي (أم الرشراش) ميناء إيلات الإسرائيلي إلى يومنا هذا. وذلك في مقابل انسحاب إسرائيل من شبه جزيرة سيناء عقب حرب ١٩٥٦.

• بعد نهاية حرب ١٩٥٦ حتى عام ١٩٦٧ (أحد عشر عاما) احتفلنا في مصر بعيد النصر، وصف هذا العيد أحد المفكرين بعيد النصر المزيف.

• قبولنا عام ١٩٥٦ بانسحاب إسرائيلي مشروط هو تفريط في السيادة القومية.

• عدم الإعلان عن هذا الانسحاب المشروط للشعب بل ظل في طي الكتمان والسرية حتى عام ١٩٦٧.

• السماح لإسرائيل باستخدام خليج العقبة والتنازل عن الأرض المصرية دون استشارة الشعب الممثل في مجلس الأمة.

• فوجئ الناس في ٥ يونيه ١٩٦٧ بإعلان إغلاق خليج العقبة أمام الملاحة الإسرائيلية دون إشارة إلى الأرض المصرية (أم الرشراش) التي ذهبت لإسرائيل.

• ما بني على باطل وكذب فهو باطل. فقد احتلت إسرائيل في ست ساعات سيناء والضفة الغربية ومرتفعات جولان والقدس الشريف.

• يقول رسولنا الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم: كلكم خطاؤون وخير الخطاءين التوابون، لكن هذا الخطأ على المستوى الشخصي أو الفردي، أما خطأ المسئول عن الأمة وراعيها، ومسئولية الراعي والتقصير في حق الرعية نعتقد أنها تختلف وتتباين اختلافا وتباينا شديدا عن الخطأ الذاتي يقول الخليفة الراشد عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – "لو عثرت دابة في العراق لسئلت عنها لم لم تمهد لها الطريق. وعمر الفاروق ذلكم هو الذي عزل القائد العظيم خالد بن الوليد سيف الله المسلول الذي عقمت النساء أن يلدن مثله كما قال عنه الخليفة الصدّيق أبو بكر – رضي الله عنه – خالد ذلكم عزل بأمر من

أمير المؤمنين عمر لماذا؟!! لأنه منح شاعرا إثنى عشر ألف درهم من ماله الخاص، وليس من بيت مال المسلمين لماذا يا عمر الخير؟ لأن هذا الإنفاق الشخصي إسراف وتبذير.

إن الإسلام كمنهج حياة حضارية يقر بقدسية وتوقير وتعظيم المبادئ والقيم والأخلاق، أما الأشخاص مهما علا قدرهم ومكانتهم ومنزلتهم، فلا ينالون أدنى تكريم أو تعظيم إلا بتطبيقهم هذه المبادئ والقيم فإن تخلوا قدر أنملة عن الاستمساك بمبدأ فينبغي أن يتعرضوا للمساءلة والاستجواب والمحاكمة، والله تعالت أسماؤه وجلت قدرته وعظمت حكمته وعلمه، يعلمنا في قرآنه العظيم وفي كثير من آياته المحكمة هذه الحقيقة الجوهرية وهي المعايير والموازين الربانية التي نجعلها حكما وفيصلا لتقديرنا وحكمنا على الناس؛ إن الأنبياء والمرسلين صلى الله تعالى عليهم وسلم الذين اصطفاهم ربنا العليم الحكيم لهداية خلقه وإخراجهم من الظلمات إلى النور وهم عليهم الصلاة والسلام خير خلقه، والنموذج والمثال والقدوة للإنسانية جمعاء خيار خيار الناس وأفضلهم عند الله تعالى وعند الناس إلى قيام الساعة. هؤلاء الأنبياء والمرسلون ومنهم أولو العزم لم يستثنوا من توجيهات من أرسلهم جل وعلا. هذه التوجيهات الشخصية لم تخل من بعض العتاب وإن كان عتابا من حبيب إلى أحبائه، وقد تراوح هذا العتاب الإلهي لخير خلقه بين اللين حينا والشدة حينا آخر على الرغم من عصمتهم صلى الله عليهم وسلم، أقول – والله أعلى وأعلم – أن الله تبارك وتعالى يريد أن يحذرنا أن أنبياءه ورسله بشر وليسوا ملائكة ومن شأن الطبيعة البشرية النسيان والسهو فهم في حاجة من الله تعالى الرءوف الرحيم إلى بعض التوجيهات التي ترد في صورة العتاب.

هؤلاء هم الأنبياء والمرسلون فما بالنا بغير الأنبياء والرسل أو ليسوا في حاجة ضرورية إلى تقويم وتصويب مسلكهم وسيرتهم وخاصة الرعاة والمسئولين منهم ؟

إن تقديس وتعظيم الأشخاص مهما علت رتبتهم ومناصبهم الرئاسية مرفوض، وعلينا أي الرعية واجب إقالة عثراتهم وزلاتهم. إن عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وهو من هو يقول: رحم الله امرءا أهدى إليّ عيوبي.

ولقد أدرك هذه الحقيقة، حقيقة مساءلة الحكام بل وإقالتهم غير المسلمين من الغرب والشرق، أن رئيسا أمريكيا أقيل من منصبه، لخطأ يعد في ثقافتنا السياسية هفوة، ونقرأ ونسمع كثيرا عن وزير في تلك الدول يقدم استقالته عن قصور في وزارته ليس هو مسئولا مسئولية مباشرة عنه وفي اليابان من يبالغ في تأنيب المسئول نفسه إلى حد الانتحار.

والآن تعالوا نستكمل مأساة أو مهزلة هزيمة ١٩٦٧ وماذا حدث للمسئول الأول عن هذه الكارثة، إنه وللأسف الشديد لم يتعرض لعتاب أو تأنيب ناهيك عن المحاكمة أو الإقالة، بل قد احتفل به في مجلس الأمة وأثناء هذا الاحتفال كان على بعد كيلومترات من مكان الاحتفال وربما في توقيت زمني مقارب، دُفن آلاف من الجنود المصريين أحياء في سيناء المحتلة بعد ما أذيقوا الذل والمهانة والتحقير، اعترفت إسرائيل أخيراً بهذه المجزرة وصورته فيلما تليفزيونيا خلال عام ٢٠١٠ متحدية بل مستهزئة بالأمة العربية حكاما ومحكومين.

وقبل الحديث عن حرب العاشر من رمضان ينبغي علينا ويقتضينا الإنصاف والأمانة العلمية أن نقول كلمة صادقة وموضوعية وحيادية عن دور الجندي المصري المنعوت من قبل الصادق الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بـ "خير أجناد الأرض"، وعلى الرغم من هذه الشهادة النبوية، فإن الجندي المصري قد ظلم ظلماً فاحشاً ومنكرا وحمله الجاهلون مسئولية هزيمة ١٩٦٧، بعد أن شنوا عليه صنوفا من السخرية والاستهزاء لجبنه وهروبه بعد أن سلم العدو أسلحته وذخيرته فارا ومؤثرا السلامة عن المواجهة القتالية حسب زعمهم هؤلاء الجاهلون والمفترون والكاذبون الذين دفعهم إلى تهوين وتحقير دور الجندي المصري هو الخوف والرعب من مساءلة المسئول الحقيقي والمباشر عن هزيمة الساعات الست وليست الأيام الستة، نعم، إن القيادة السياسية والعسكرية هي المسئول الأول والوحيد عن هذه الكارثة القومية، وإليك أيها القارئ العزيز ما كتبه الأستاذ الجامعي والمؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس بقلمه المنصف في كتابه "باشوات وسوبر باشوات" وفي صفحة ٣١٣ بعنوان: ملحق رقم ٧ "الجيش الذي هزمه قواده"!!

عصام دراز ضابط مصري شاب خاض الكثير من حروب مصر خلال العصر الناصري منها حرب سيناء في يونيه ١٩٦٧ وقد كتب عن تجاربه الشخصية في تلك الحروب قصتين عظيمتين من يونيو ١٩٦٧ – القاهرة ١٩٧٨.

"وقد قال الأستاذ الكبير/ نجيب محفوظ في إحدى سوانح أفكاره التي ينشرها في جريدة الأهرام إن جيشنا المصري لم ينهزم في حرب ١٩٦٧ وإنما تلقى أمرا بالهزيمة فانهزم".

والصفحات التي أنقلها هنا من رواية عصام دراز ص ٨٢-٨٩ تصور هذا المعنى أصدق تصوير.

كان مطار "بيرعماده، على يميني غارقا في اللهب والحطام يلعق جراحه، وعلى ممراته رقدت الطائرات "الميج/ الفضية على بطنها، أو مقلوبة على ظهرها وبجوارها أجنحتها على الأرض كانت تشبه سربا من "الأوز" البري تم اصطياده في مباراة للصيد، وبعد مسيرة عدة دقائق على الطريق وجد على الجانب الأيسر موقع مدفعي للطائرات يحترق، في حين أن مدافعه العظيمة ظلت منتصبة رافعة هامتها في كبرياء، ووضعت حول الموقع جثث رجاله الذين استشهدوا على مدافعهم، كان منظر المدافع المحطمة وحولها الجثث والجرحى كتمثال خالد يصور معنى كلمة البطولة والشجاعة. لقد كان هذا الموقع يمثل رأس مثلث لمجموعة مواقع مضادة للطائرات، كانت هذه المواقع تقاتل طائرات العدو أشعل استبسالها في القتال الحماس في كل جنود وضباط المنطقة. وشاهدنا إحدى الطائرات وهي تهوي خلف أحد الجبال المحيطة بالمنطقة بعد أن أصيبت إصابة مباشرة واشتعلت فيها النيران.

وهناك أماكن أخرى بصحراء سيناء وعلى الخطوط الأمامية تخوض قواتنا قتالا مريرا، شديد الصعوبة خاصة بعد أن فقدنا السلاح الجوي، أي أيام صعبة ننتظرها إذن وماذا يا رب يخبئ لنا الغيب ؟

وأصبح اليوم الآن، بل والساعة، هو حقيقة تاريخية كاملة، لم يعد اليوم كأي يوم من الأيام السابقة، إن اليوم الآن بل والساعة هي أجيال تولد وأجيال تبعث من جديد، هو قرن من الزمان في عمر الحرب.

يواصل الضابط عصام دراز تجاربه الشخصية قائلا: كنا قد أخذنا مواقعنا المحددة لنا، وكان الصباح قد بدأ يبعث فينا روحا جديدة بعد ليلة مرهقة، كان الجنود يتمددون بجوار دباباتهم في راحة قصيرة جلسنا سويا نحن ضباط الكتيبة على الأرض بجوار مدق صنعته الدبابات والعربات فبدا وكأنه طريق ممهد، رءوسنا ما زالت تنز وتطن ولم يذهب عنها صدى... داكنة ومغطاة بطبقة من الحصى وكانت التلال تبدو وكأنها منحوتة نحتا، أو كأنها صبت في قوالب ثم وضعت متجاورة، ومن خلفنا ظهر جبل مرتفع غريب الشكل داكن اللون بجانب صحراء سيناء تلتقي عند الأفق المعبأ بالضباب بصحراء النقب جنوب إسرائيل. بدأنا نحتسي الشاي في أكواب بلاستيك وكان قد قدمه لنا ضباط وجنود أقرب دبابة وكأننا ضيوف عليه فقد خرج ورحب بنا وقدم لنا الشاي. ضحكنا من قلوبنا عندما كنت أقص عليهم قصة الفراخ الهاربة، ظللنا نضحك من قلوبنا في جو صاف بعد ساعات من الإرهاق. كانت نسمة الصباح مع الشاي قد أنعشتنا بعض الشيء. كان قائد الكتيبة يقف على مقربة منا. حين اقتربت منه سيارة جيب من سيارات قيادة اللواء، كنا نضحك

وبدا يتنبه. لقد تغيرت وقفة قائد الكتيبة، وهو يقرأ الورقة الصغيرة دار حوار لم نسمعه، شعرنا من الوهلة الأولى أن هناك حادثا جللا قد حدث لأن ملامحه بدت مضطربة، كان كأنه يستغيث بنا عندما وقفنا حوله قال بصوت متردد وهو ينظر لنا في فزع.

- أمر بالانسحاب فورا.

لم نسمع الكلمة جيدا، أو لم نصدق ما سمعناه. كرر وملامحه تكاد ترتجف.

- أمر بالانسحاب فورا.

نظرنا إلى الضابط الذي أحضر الأمر بنفسه، كان يستعد لركوب السيارة. كنا نريد تفسيرا أكثر. قال بهدوء وكأنه يقدم لنا العزاء في مصاب أليم.

- الإنسحاب فورا إلى بير تمادة.

حاول أحدنا أن يسأل :

ما السبب ؟

قال وهو ينظر بعيدا عن عيوننا.

- أوامر... ولا أحد يعرف السبب بالضبط.

هز رأسه آسفا ورحنا ننظر حولنا في حيرة، فوجئت بحالة قائد الكتيبة، فقد كان في حالة يرثى لها. فقد كنت أشعر بيني وبين نفسي أنه قائد من الدرجة الثانية قد بدا عليه أنه يستعد للامتحان وليس للحرب. فقد أعد أوراقه بطريقة منظمة وكان يحتفظ بمذكرات كاملة عن كل شيء، وكان لا يصدر أمرا إلا بعد أن يراجع أوراقه جيدا، لهذا كنا متبرمين من طريقته بيننا. أما الآن فقد بدت ملامحه تنم عن غضب وحزن كظيم، شعرنا جميعا بشيء أشبه بالدوخة بعد هذه الضربة غير المتوقعة، نظرنا حولنا ونحن لا نعرف كيف سننقل هذا الأمر إلى رجالنا.

قال الضابط وهو يركب سيارته: المطلوب سرعة الاستعداد

انطلق بسيارته ووقفنا حول قائد الكتيبة، ننظر في بعضنا البعض، ابتعد عنا قائد الكتيبة عدة خطوات واستدار للحظات، خيل إلينا كأنه يمنع دموعه من السقوط أمامنا، ازداد ثقل الحزن على صدورنا.

قال أحد الضباط:

- قد يكون هناك واجب آخر سنكلف به.

لم يجب أحد، قال آخر وهو يحاول أن يعطي لكلماته مزيدا من الصدق والحرارة.

- مؤكد أن هناك خطة ما.

قال آخر بصوت يائس:

- لا يمكن أن نهزم بقرار.

قال ضابط قصير برتبة ملازم أول:

- مؤكد أن روسيا لن تتركنا نهزم هكذا.

نظرنا إليه شزرا. شعر بأنه اخطأ فانكمش على نفسه قلت له:

- اسكت لا تكن غبيا.

فسكت لكيلا يكون غبياً، قال قائد الكتيبة معلقا.

- روسيا لن تأتي لتحارب بدلا منا.

مضى دهر طويل ونحن نقف مكاننا حائرين. هبت نسمة هواء باردة. تألقت الشمس بعدها، وازدادت سطوعا سمعنا صوت مذياع يذيع بيانا عسكريا، قال المذيع بصوت جهوري مشتعل حماسة: إن قواتنا تتقدم صوب صحراء النقب جنوب إسرائيل، ووعد المستمعين بأن البيان التالي سيكون من تل أبيب عاصمة إسرائيل نفسها ودوى نشيد حماسي عكس في نفوسنا شعورا مريراً بالاشمئزاز والمرارة.

- إلى متى هذا الكذب ؟

قال ذلك أحدنا بحركة عصبية من يده، تناهى إلى سمعنا صوت انفجارات متتالية يأتي إلينا من الجهات الأربع كأنها قرع لطبول مجهولة ثم صوت انفجارات تطير على ارتفاع عال جدا. رفعنا ذقوننا في الهواء عدة دقائق حتى رأيناها في صورة نقط سوداء صغيرة قادمة بعد أن أفرغت حمولتها. قال قائد الكتيبة أخيراً:

- هذا ما حدث في حرب ١٩٥٦ بالضبط ثم بعد ذلك قالوا إننا انتصرنا.

ظللنا صامتين – نظرت إلى الأرض وتأملت الرمال الداكنة وقطع الحصى الصغيرة. قال رضا بعد أن انضم إلينا:

- كيف ستتحرك الآن بلا غطاء جوي؟ إنها مذبحة إذن.

قال قائد الكتيبة ليمنع الاسترسال في حديث لا معنى له ولا جدوى.

- لأننا جيش نظامي... سنطيع الأمر ولو خطأ... اذهبوا إلى رجالكم الآن، فالأخطار الحقيقية قادمة فاستعدوا لها.

اعترانا شعور حاد بالمرارة. فقد كنا كالجسد الذي سلبت منه روحه، وظل واقفا مكانه بكل قوته وعنفوانه"[1].

❁ ❁ ❁

في العاشر من رمضان المعظم (٦ أكتوبر ١٩٧٣) عبر جنودنا البواسل قناة السويس محطمين خط بارليف هذا الخط المنيع الذي زعم أحد كتابنا الصحفيين استحالة تدميره قائلا أن عبور القوات المصرية القناة متخطين خط بارليف من المستحيلات حيث يدفع إسرائيل لتحول مياه قناة السويس إلى نابالم سائل وعندئذ سنفقد ٧٥٪ من جنودنا دون اجتيازهم خط بارليف !!

حقا إنها سياسة التيئيس والإحباط والتعجيز التي تبناها أحد الإعلاميين المعدودين الذين شهرتهم تجاوزت حدود العقل والمنطق.

ولكن هذا الصحفي الأوحد كما كان هذا لقبه يوما ما، من المؤكد أنه كان جاهلا بقدرات وإمكانات ذكاء وخبرة الإستراتيجية العسكرية المصرية التي أذهلت العدو والصديق معا، إن معجزة العبور هذه رسالة صادقة وقوية إلى العالم أجمع أننا قادرون على العمل الجيد والرائع في جميع المجالات المدنية منها والعسكرية بشرط إخلاص القصد والنية والعمل بروح الفريق الجماعي مع التجاهل المطلق للمصلحة الشخصية والذاتية. بعد إزالة حاجز اليأس والإحباط، عبر إلى الضفة الشرقية لقناة السويس ٨٥ ألف جندي مصري، تحت غطاء مكثف من قواتنا الجوية مكبدين العدو خسائر في الأفراد والمعدات.

ولقد عمت الفرحة والبهجة ليست على المستوى الشعبي المصري وحسب بل على النطاق العربي والإسلامي أيضاً على هذا النصر المصري الأول على إسرائيل منذ حرب ١٩٤٨.

ولكن والويل والثبور غالبا بعد لكن، فيبدو أن الفرحة قد أسكرتنا ونشوة الانتصار كانت سببا مباشرا في عدم الحفاظ على هذا الانتصار وصونه ووقايته من شرخ أو تفاوت

---

(١) باشوات وسوبر باشوات د. حسين مؤنس بتصرف واختصار

أو فطور، وإسلامنا الحنيف طالما حذرنا من المغالاة والإسراف في الفرح أو الحزن، "لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ"، وأولاً وأخيراً وهو الأهم لقد غاب عنا مكر العدو وخداعه وخبثه.

نعم، فإن هذا العدو قد استغل ثغرة أو فجوة تمثلت له نقطة ضعف في صفوف قواتنا غربي القناة فتسلل منها بقواته فصار قاب قوسين أو أدنى من جيشنا المرتكز، وهنا كانت الطامة الكبرى، وإجهاضا للعبور العظيم، تمثل هذا التسلل أو الإجهاض في إملاء الشروط التي تنال وتحبط فاعلية وإيجابية الانتصار، فضلا على أن العدو استغل اختراقه هذا إعلاميا زاعما أن قواته على بعد عشرين كيلومترا من القاهرة.

وتركزت شروط وإملاءات العدو عقد مباحثات بين الطرفين سميت وقتئذ بمباحثات الكيلو ١٠١، وبطبيعة الحال كانت نصوص ومواد هذه المباحثات مجحفة وظالمة لنا، ولكن لا مفر من القبول فمن هذه المواد انسحاب قواتنا التي عبرت القناة (٨٥ ألف جندي/ من سيناء إلى الضفة الغربية للقناة ما عدا ثلاثة آلاف منهم، كذلك إعادة القوة المسلحة من الدبابات والمدرعات والمصفحات إلى غربي القناة أيضاً سوى حوالي سبع دبابات منها بقيت بالقرب من القناة، أما القوة المسلحة الإسرائيلية من الأفراد والمعدات العسكرية والمتمركزة على الحدود الإسرائيلية فإضعاف الأفراد والمعدات العسكرية المصرية شرقي القناة.

المهم تمخض عبور قواتنا المسلحة بعبقرية إستراتيجية وتخطيمها حاجز اليأس والإحباط تمخض هذا الإنجاز الجليل بعد سنوات عن اتفاقية كامب ديفيد هذه الاتفاقية التي لم تحقق الحد الأدنى من مطالب الأمة المشروعة ومنها تحرير شبه جزيرة سينا تحريرا كاملا، وتحرير مرتفعات الجولان السورية، والضفة الغربية وفك أسر المسجد الأقصى مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعراجه. وإقامة الدولة الفلسطينية على أرض فلسطين المحتلة، بل إن هذه الاتفاقية قد خدمت إسرائيل خدمة لم تكن تحلم بها وهي إقامة سلام منفرد مع أقوى دولة عربية (جمهورية مصر العربية) مع بقاء مرتفعات الجولان والضفة الغربية بما فيها القدس الشريف تحت سيطرة إسرائيل إلى يومنا هذا كذلك فإن شبه جزيرة سيناء لم تحرر تحريراً كاملاً وغزة الفلسطينية تعاني أشد المعاناة من الحصار الإسرائيلي وتعرضها للغزو الإسرائيلي كل حين وآخر.

إن العسكرية المصرية صنعت أعظم عبور إستراتيجي بعد أن حطمت أشد واعتي مانع وساتر ترابي، إن روح وجوهر هذا العبور كان كفيلا وجديرا بالاستمرار والمضي قدما نحو تحرير الأرض العربية جميعا من دنس الاحتلال الإسرائيلي.

ولكن الرئيس السادات – رحمه الله – كان يخشى انتكاسة وإجهاض هذا النصر الذي اعتقد أنه من صنعه واختراعه وأمجاده الذي ينبغي ألا يشاركه أحد فيها سواه، وهذه خطيئة العسكريين كافة إذا صاحبهم نجاح في مجال أو ميدان ما يزعمون أنهم هم الذين انفردوا بتحقيق وإنجاز هذا النجاح، وخشية أوتوجس السادات نابع من تفوق إسرائيل وامتلاكها الأسلحة الهجومية كما وكيفا، نعم إن كفاءة الأسلحة عنصر مهم وخطير في قلب موازين المعارك العسكرية، ولكن ليس السلاح وحده وسيلة من وسائل النصر، فالولايات المتحدة بما تملكه من ترسانة الأسلحة الفعالة لم تستطع أن تهزم فيتنام الشمالية ليست ذات الأسلحة الدفاعية فقط بل والبدائية والتقليدية بالقياس للسلاح الأمريكي، وحزب الله اللبناني انتصر على إسرائيل عام ٢٠٠٦ بأسلحة بدائية أيضاً بالقياس بما تملكه إسرائيل ولأول مرة منذ إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ انطلقت صفارات الإنذار في المدن الإسرائيلية خوفا وجبنا من صواريخ حزب الله، صفارات الإنذار هذه التي لم تسمع في إسرائيل خلال حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣.

نحن لا نستهين بجدوى وإيجابية السلاح كما وكيفا، ولكن ليس السلاح هو العنصر الوحيد والحاسم الأول والأخير في تقرير مصير الحروب قديما وحديثا كما أن القيمة العددية للجيوش ليست كذلك.

بعد نهاية عصر الرئيس السادات تولى حكم مصر نائب الرئيس الراحل حسني مبارك مشكلا حكم العسكر الثالث الذي تميز بما تميزت به حكومة القادة العسكريين وأهمها وأخطرها الاستبداد السياسي ومصادرة الحرية السياسية في مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية، بالإضافة إلى التلاعب والعبث والتزوير في نتائج الانتخابات البرلمانية والرئاسية لمصلحة حكم الفرد، علاوة على انتشار الفساد المالي والاقتصادي، والنهب والسطو على مال الدولة وثرواتها المادية والعقارية بضمانات وهمية، لحساب ذي الحظوة المقربين من السلطة الحاكمة التي اخترعت رذيلة توريث الحكم لنجل الرئيس من بعده، أما الفشل السياسي عربيا ودوليا فحدث عنه ولا حرج، ظهر ذلك جليا في إقحام مصر ضد الغزو العراقي للكويت، هذا الغزو الذي كان وليد مؤامرة أمريكية ذات أهداف إستراتيجية أمريكية أيضاً أفضنا الحديث عنها في فصل تال من هذه الدراسة هذه المؤامرة

الأمريكية سبقتها مؤامرة أمريكية أخرى ضد الجمهورية الإيرانية الإسلامية، هذه المؤامرة التي دفعت صدام حسين بمهاجمة الجمهورية الإيرانية بذرائع وعوامل واهية خدمت مآرب أمريكا الإستعمارية الخبيثة، في ثمانينات القرن الماضي.

ومصريا: ماذا كان رد فعل حكم مبارك وسياساته الحمقاء حيال الهجوم الأمريكي على طائرة مصرية ومدنية تقل أكفأ وأجدر وأذكى الطيارين المصريين الذي أنهوا دراستهم العسكرية في كليات الحرب الأمريكية، هذا الهجوم الأمريكي الحقود والغادر الذي أدى إلى إسقاط هذه الطائرة المدنية في قاع المحيط في المياه الإقليمية الأمريكية!

أو ليست هذه الجريمة الشنيعة التي ارتكبت أواخر تسعينيات القرن الماضي، كانت كفيلة – على الأقل – بقطع علاقاتنا السياسية والاقتصادية مع دولة البغي والعدوان؟ ولكن وبكل أسف وحزن ومرارة لم يحدث ذلك، لأن الدم المصري رخيص جدا، ولا سيما أمام المنافع المادية والمالية والمليارات من الدولارات التي تكتظ بها حسابات الرؤساء وأبنائهم وزوجاتهم في مصاريف أمريكا وسويسرا.

أجل، إن الدم المصري رخيص جدا داخل الوطن وخارجه، أو ليست من تسبب في إغراق ألف مصري على متن عبارة متهالكة غادر البلاد نهارا وجهارا يرافقه نجله إلى لندن دون أدنى محاسبة أو مساءلة أو لوم أو عتاب!!!

نعم، إن الدم المصري رخيص جدا لدى حكام مصر الذين تربعوا على عرش الحكم والقيادة بانتخابات مزيفة لا تعبر عن إرادة الشعب فلا يعنيهم قيد أنملة قسوة ومرارة البطالة بين الشباب، خاصة هؤلاء الذين يغامرون بحياتهم بحثا عن وسيلة للحياة في إيطاليا واليونان ويلقون حتفهم على شواطئ هاتين الدولتين، إن الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كما ذكرنا يقول "لو عثرت دابة في العراق لسئلت عنها، لم لم تمهد لها الطريق؟ دابة أي حيوانا وليس إنسانا كرمه خالقه جل وعلا، نعم إن حضارة الإسلام كفلت للحيوان حقوقا، هذه الحضارة السابقة بحضارة الغرب بأربعة عشر قرنا أو لم يقل أستاذ البشرية محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم: دخلت امرأة النار في هرة لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، ولما نبذ المسلمون إسلامهم وراء ظهورهم ملتمسين التقدم والرخاء وأسباب النصر من غيرهم، كان "حقا" على هذا الغير أن يتهموا المسلمين بالتخلف والإرهاب والجهل والتفريط في حقوق الإنسان والاستبداد

والديكتاتورية في الحكم، وصدق الله العظيم "وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ" (الشورى: ٣٠)

قبل ثورة ٢٥ يناير المجيدة بسنوات معدودة احترق أكثر من ألف مصري في قطار متجه إلى صعيد مصر. من المسئول عن حرق هؤلاء الناس؟ لا أحد، التزم جميع المسئولين في الدولة الصمت السلبي والجبان وأخيراً نطق أحد المسئولين بعد أن سكت دهرا وقال كفرا. قال إن المسئولية تقع على عاتق ركاب القطار اللعين. إنهم لا يفتئون إيقاد مواقد الشاي داخل القطار، فعلى نفسها جنت براقش!!! شر البلية ما يضحك، إن صناعة الحروب من المسئولية صناعة مألوفة ومعروفة لدى المسئولين في مصر كبيرهم وصغيرهم هل نسينا "انتظرناهم من الشرق فجاؤنا من الغرب، وتحطمت الطائرات عند الفجر التي قيلت بعد هزيمة ١٩٦٧".

❁ ❁ ❁

والآن، هل يعود حكم العسكر مرة رابعة بكل سيئاته واستبداده وزيفه التي اكتوينا بناره وجحيمه وكارثيته طول ستين عاما؟! "عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنسَى"[1]، إن السنين الشداد التي ابتليت بها مصر في ظل الحكم الهكسوسي الاستعماري هذه السنين العجاف لم تتجاوز سبع سنوات كسادا وقحطا اقتصاديا بلغة عصرنا الحاضر. تحمله الشعب المصري مؤملا وراجيا من الله تعالى أولاً العام الذي يغاث الناس فيه ويعصرون. وثانياً: إزاحة استعمار الهكسوس بالجهاد والكفاح، وفعلا تحقيقا وتصديقا لرؤيا يوسف الصديق عليه السلام حلت السنوات السبع بالغوث والرخاء على مصر.

إذا عدنا متوقعين قدوم حكم العسكر وعسكرة السياسة والاقتصاد والثقافة فإننا مضطرون – وليعذرنا القارئ الكريم – إلى إعادة مساوئ الحكم العسكري الذي جثم على صدر مصر ستين عاما، نعم إعادة كوارث هذا الحكم التي سبق عرضها تفصيلا نقدمها هنا في نقاط موجزة:

- أخطر وأبشع ما يميز الحكم العسكري الاستبداد السياسي وخنق المعارضة ولو كانت بناءة ووطنية وإيجابية وذلك بإلغاء مبدأ الشورى.
- وسيلة كبت المعارضة النزيهة هي الزج بالمعارض في غياهب السجون والتعذيب البدني والنفسي وهتك الأعراض.

---

(١) سورة طه، الآية ٥٢.

• وظيفة وسائل الإعلام منحصرة في تمجيد الحاكم والتسبيح بحمده أناء الليل وأطراف النهار، وتحضرني في هذا المقام كلمة للشاعر نزار قباني وهي: "الحاكم يضرب بالطبلة، وجميع وزارات الإعلام تضخم في صوت الطبلة والصحف الكبرى والصغرى تعمل راقصة في ملهى تملكه الدولة".

• إن جمال عبد الناصر وأنور السادات بصفتهما عسكريين فشلا مهنيا في إدارة حروب ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، أما حسني مبارك فيكفيه "فخراً" أن حاز جائزة إسرائيلية وهي: "كنز إستراتيجي لإسرائيل".

• إن مصر في حاجة ملحة إلى رئيس مدني بانتخابات تحكمها الشفافية والنزاهة كالانتخابات الرئاسية والبرلمانية لعام ٢٠١٢ بشهادة الغرب والشرق.

• الجيش المصري: خير أجناد الأرض الذي عرضنا موقفا من مواقفه البطولية والفدائية والوطنية في حاجة إلى قائد عسكري جندي خاضع لرئيس جمهورية مدني.

• إن مصرنا الحبيبة غنية بثرواتها المنتجة ونيلها العظيم، إن شبه جزيرة سيناء تضم ١٣ مليون فدان أي ضعف مساحة الأرض المنزرعة في مصر، ومع ذلك نستجدي القمح من الشرق للغرب.

الفصل الثالث

التعاون على البر و التقوى

التعاون على البر والتقوى

يقول الحق تبارك وتعالى: "وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإثْمِ والْعُدْوَانِ واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ"(١)، ويقول عز وجل: "واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا"(٢)، ويقول صلى الله عليه وسلم: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى"(٣)، مما لا شك فيه أن التعاون والاعتصام قوة، والتفرق والتشتت ضعف وهوان وخلافة الله تعالى في الأرض لن تنهض وتقوم وتستوي على سوقها وأركانها وقواعدها، إلا إذا كانت الأمة على قلب رجل واحد، وأن الاعتصام بحبل الله تعالى، إنما يعني وحدة الكلمة والموقف والهدف، وحدة قائمة على البر والتقوى، على ما تعود على هذه الأمة كافة بالمنعة والعزة وليست وحدة تهدف وتسعى وتقوم على المصالح الشخصية المحدودة التي لا تصمد عند المحن والشدائد، والمؤامرات التي لا تبغي إلا استضعاف للشعوب، والاستهانة بمبادئها وقيمها الخالدة، وإن إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ كان تخطيطا استعماريا لتمزيق الأمة وإضعافها وتشتيتها لكيلا تملك مصادر القوة أمام من يعاديها، ولا عدو للإسلام إلا إسرائيل المغتصبة حقوق الفلسطينيين، إسرائيل هذه التي أمدوها بجميع وسائل التخريب والقتل والتدمير من هذه الأسلحة السلاح المحظور على دول المنطقة – ظلما وبغيا– واستثناء إسرائيل هذا الاستثناء الناتج عن سياسة المعايير المزدوجة، التي تحكم السياسة الدولية، وإذا تحررت دولة كإيران من أسر هذه السياسة الظالمة قامت الدنيا ولم تقعد، ووجهت إيران بالتهديدات الدولية، ووصمها بالإرهاب وتهديدها السلام العالمي، وخروجها ومخالفتها قانون حظر السلاح النووي الذي لا يطبق على إسرائيل، ولكن الجمهورية الإسلامية الإيرانية لم تأبه بهذه التهديدات، ومضت في مشروعها النووي السلمي قدما إلى الأمام.

---

(١) سورة المائدة، الآية:٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية:١٠٣.

(٣) أخرجه البخاري.

ونحن إذا كنا لا نستعرب الرفض والاعتراض على المشروع الإيراني من قبل أمريكا ودول العرب وإنما الاستعراب كله منصب على بعض الدول العربية التي تدور في فلك أمريكا والغرب حيال مشروع إيران النووي السلمي، لا ندري "فلسفة" الغضب العربي المعلن حينا، والمستتر حينا آخر نحو إنجاز إسلامي وحيد في المنطقة، كان مستحقا للفخر والزهو والإعجاب.

إن ذريعة الاعتراض العربي مرجعها أولا: إن إيران دولة شيعية وليست دولة سنية، وثانيا: وهو الأهم أن الدول العربية ولا سيما الخليجية منها تتوجس خيفة من قوة إيران العسكرية المتصاعدة التي ربما تهدد بغزو دول الخليج، كما فعل صدام حسين عام ١٩٩٠.

بالنسبة للذريعة الأولى: أود أن أؤكد أنني سني ومذهبي مالكي، وكوني سنيا لا يعني أنني لا أحب آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إنني أحبهم لقول النبي صلى الله عليه وسلم "أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله أياي وأحبوا آل بيتي لحبي"(١) وحب آل بيت رسول الله إنما يعني الميل العاطفي والقلبي والاقتداء بهم – ولا يعني إطلاقا عصمة أحد من آل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولقد أطلق على بعض فرق الشيعة الروافض لذلك رأينا الإمام الشافعي – رضي الله عنه – يرفض هذا المسمى مؤكدا حبه آل البيت قائلا:

إن كان رفضا حبُّ آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضي

نعم إن بعض فرق الشيعة منحرفون عن سواء السبيل وذلك بسببهم بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشتمهم رضوان الله تعالى عليهم الذين نحبهم ونوقرهم، كما نحب ونوقر آل بيت رسول الله. بنفس الدرجة والمقدار نحن لا نوافق الشيعة في انحرافاتهم هذه، ولا ادعائهم عصمة بعض الأئمة من آل البيت، فلا معصوم سوى من عصمه الله تعالى رسولنا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولكن اختلافنا نحن كأهل السنة مع الشيعة ينبغي أن يكون اختلافا لا يهدم بنيان الأمة الإسلامية المرصوص الذي يشد بعضه بعضا وتآزرهم في مواجهة العدو المتربص والمشترك المنتهك لحرمة الأرض والعرض.

---

(١) أخرجه الترمذي.

ولنا في رسول الله صلوات الله وسلامه وفي كتابنا العزيز قدوة وأسوة حسنة، ففي واقعة تاريخية لا أقول شبيهة فيما بيننا وبين الشيعة، بل بين مسلمين وغير مسلمين ولكنهم أهل كتاب ليسوا وثنيين مثل أعدائهم وأراد الله عز وجل أن يبشر المسلمين الأوائل بنصر أهل الكتاب على الوثنيين، ذلك أن الكتابيين أقرب للمسلمين من غيرهم عباد النار. يقول الحق تبارك وتعالى: "الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ"[1]. إن الله تعالت أسماؤه وجلت قدرته – يعلمنا ثقافة الاختلاف، وأنه ينبغي أن يكون الاختلاف محدودا ومحكوما بحدود عقلية لا يتجاوزها، أو بعبارة أخرى ألا يتعدى الاختلاف موضوعه ومناطه...

وما أحوجنا نحن إلى هذا الدرس القرآني الحضاري إزاء اختلافنا مع إيران التي تعادي أعداء الإسلام والمسلمين، وهناك قاعدة منطقية صحيحة هي أن عدو عدوي صديقي، سواء كان من يعادي عدوي مسلما أو غير مسلم، عربيا أو غير عربي. والدليل القرآني لا شك فيه ولا لبس ولا غموض السابق الإشارة إليه، وهو فرح المسلمين بانتصار الروم (أهل كتاب) على الفرس الوثنيين، على الرغم أن أهل الكتاب مختلفون مع المسلمين في كثير من الثوابت العقدية، إلا أن المسلمين وأهل كتاب يجمعهم كفرهم بوثنية الفرس في ذلك الوقت إذا تقرر ذلك، فإن الاختلاف ليس دائما مؤديا إلى العداوة، ألا يتعين علينا أن نراجع أنفسنا ونعيد حساباتنا وأوراقنا تجاه دولة مثل الجمهورية الإسلامية الإيرانية، متجاهلين مواطن الاختلاف بيننا وبينها، ناظرين بعين العقل والبصيرة إلى النقاط الجوهرية والأساسية التي تجمعنا ومنها إيماننا جميعا بوحدانية الله عز وجل، وبالكتاب العزيز المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبالقبلة الواحدة التي نولي جميعا وجوهنا شطرها، أو ليس كل ذلك واجبا وفريضة حتمية إلى أن نوحد أهدافنا المصيرية وأهمها وأعظمها – كما سبق – تحرير أراضينا من رجس وطغيان المغتصبين، وفك أسر القدس الشريف مسرى ومعراج رسولنا وحبيبنا محمد صلى الله عليه وسلم.

❁ ❁ ❁

(١) سورة الروم، الآيات: ١-٥.

الذريعة الثانية وهي التوجس أو القلق الخليجي من إقامة علاقات طبيعية وحيوية مع الجمهورية الإيرانية أو بصريح العبارة إن الدول الخليجية تخشى أن تفعل إيران ما فعله صدام حسين من غزوه الكويت، ونقول إن هذا التوجس الخليجي أو القلق أو الخشية من نمو وإطراد وتقدم الجمهورية الإيرانية، ليست توجسا أو قلقا خليجيا ذاتيا، إنما هو مؤامرة إملائية أجنبية بطريق مباشر أو غير مباشر، مضمونها ومحتواها هو: إن إسرائيل التي تزعمون أنها عدوتهم اللدود، لم تحتل دولة خليجية ولو طمعا في ثورتها البترولية، وإنما الذي فعل ذلك رئيس دولة عربية ومسلمة مثلكم، وإن وجودنا العسكري في دولكم الخليجية، ليس دفاعا عن إسرائيل كما يدعي ذلك بعضكم، بل أن وجودنا للدفاع عنكم من أنفسكم أمثال صدام حسين وغيره.

إن هذه الخديعة الخبيثة من السهل أن تنطلي على دول الخليج ليست لأنها دول ساذجة سهلة الإقناع بل لأن الخديعة معبأة بحجج وأدلة ظاهرها سلامة النية والقصد يؤيدهما الواقع المشاهد، ولكنه واقع مخترع، ومصطنع، لأنهم هم الذين صنعوا هذا الواقع بأيديهم ومن المؤكد أنهم لم يصدقوه، ولكنهم فرضوا علينا تصديقه، وقد صدقناه، أو حاولنا تصديقه! كيف ذلك؟ أولاً: من الذي أغرى صدام حسين بغزو الكويت قائلين له: لن نتدخل ضد غزوك، وذلك حينما سأل صدام حسين إعلاميا أمريكيا قائلاً: هل ستتدخل الولايات المتحدة عسكريا إذا احتللت الكويت؟ وهنا سقط صدام في "الفخ" الذي نصب له بعد أن أجابت الإعلامية بالنفي! ثانياً: حتى لا نظلم "صدام" فإنه بعد احتلاله الكويت بخمسة عشر يوما أبدى استعداده للانسحاب، وقد أكد موافقة صدام على هذا الانسحاب مفكر يهودي أمريكي الجنسية وأستاذ جامعي في إحدى الجامعات الأمريكية وهو نعوم تشومسكي المعروف بالنزاهة وحيادية التفكير والدفاع عن حقوق الشعوب كافة دفاعا مستميتا في جميع مؤلفاته بقول نعوم تشومسكي "صدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٦٠ والذي يدعو العراق للانسحاب من الكويت، مع مفاوضات مباشرة للجانبين حول مسائل الحدود، وقد كان مجلس الأمن يبحث عرضا عراقيا بالانسحاب من الكويت في منتصف الشهر وظهر أن هناك مسألتين: الأولى: منفذ للعراق على الخليج بمقتضى اتفاقية على منطقتين غير مأهولتين بالسكان أخذتها الكويت من البريطانيين خلال وجودهم في المنطقة والثانية حل النزاع الخاص بحقل بترول داخل حدود الكويت بميلين أو في المنطقة التي أثار العراقيون النزاع عليها".

"رفضت الولايات المتحدة عرض العراق أي مفاوضات وفي ٢٢ أغسطس نشرت النيويورك تايمز أن إدارة "بوش" مصممة على إيقاف المسار الدبلوماسي خوفا من أن يفتت الأزمة"،

"برفضها للدبلوماسية، حققت الولايات المتحدة أهدافها الرئيسية في الخليج"[1].

نعم إن الولايات المتحدة حريصة حرصا شديدا على رفض انسحاب صدام من الكويت بالوسائل الدبلوماسية، ذلك أن هذا الانسحاب العراقي سلميا ضد أهداف أمريكا- كما قال تشومسكي – في الخليج العربي، هذه الأهداف التي تتمثل في إقامة القواعد الأمريكية في الدول الخليجية، والسيطرة الكاملة على آبار البترول، لكيلا يشرع سلاح البترول مرة أخرى ضد الولايات المتحدة وأوروبا كما حدث في حرب العاشر من رمضان، واستكمالا لهذه المخطط الاستعماري ينبغي إفشال إقامة أي علاقات طبيعية بين إيران والدول العربية بزرع الفرقة والشقاق بين هذه الدول التي تجمعها وشائج وأواصر الدين والقومية والتاريخ والجغرافيا بالإضافة إلى وحدة الهدف والإرادة. وإذا كنا خير أمة أخرجت للناس وإذا كنا جادين ومجاهدين لاستئناف وإعادة الأمة المستخلفة علينا أن نستيقظ من سبات الغفلة أو التغافل أو التعافي من المآرب والمخططات التي تحاك وتدبر حولنا التي تنسينا قيمة التعاون على البر والتقوى.

علينا أن نتجاهل مصالحنا الشخصية التي يأباها ويرفضها ديننا الحنيف، ونضع أيدينا في أيدي إيران التي أضاءت شمعة في ليل المنطقة الكئيب، واجهت قوى البغي والإفساد في الأرض، وذلك بالمضي قدما في برنامجها النووي، غير عابئة بجميع التهديدات والإنذارات الاستعمارية، والمؤسف أن بعض دولنا العربية تؤيد هذه التهديدات الموجهة لإيران. معللين بالحجة الواهية التي فندنا بطلانها وزيفها وهي شيعية إيران – ومعها تهمة زور وإفك يرددها الغرب هي أن إيران تؤوى الإرهابيين. كما وصفوا حزب الله بقيادة الشيخ حسن نصر الله بالحزب الإرهابي المخرب، الدفاع المشروع عن الوطن إرهاب وتخريب وإفساد في عرف هؤلاء الذين يرون الحق باطلا، والباطل حقا في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا.

لقد أكدت من قبل بجميع صيغ التأكيد والتقوية أنى لست شيعيا بل أني سني مالكي لا أعتقد بعصمة إمام إلا بعصمة الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم، وأحب آل

---

(1) مادا يريد العم سام نعوم تشومسكي. ترجمة الأستاذ. عادل المعلم

بيت رسول الله وصحابته جميعا رضوان الله عليهم جميعا" وهذا شأن كل مسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر. ولكن على الرغم من كل ذلك فإن الأمانة والعدل في القول والعمل والحيدة والنزاهة في الحكم على الناس كافة تقتضيني أن أقول الحق. والحق هو أن حزب الله اللبناني لقن إسرائيل – التي تملك ترسانة من الأسلحة الجبارة نووية وغير نووية لقنها درساً عسكرياً حين هزمت إسرائيل عام ٢٠٠٦ أمام حزب الله بقيادة الشيخ حسن نصر الله، فلأول مرة في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي بداية من حروب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣ يتعرض العمق الإسرائيلي لصواريخ حزب الله التي ضربت المدن الإسرائيلية، ولأول مرة في تاريخ إسرائيل – كما قلت آنفا- انطلقت صفارات الإنذار في قلب إسرائيل، أو ليس هذا النصر البطولي الذي حققه حزب الله، وبأسلحة تكاد تكون بدائية بالقياس إلى ما تملكه إسرائيل من وسائل الدمار والتخريب والإبادة، مدعاة لفخر العرب والمسلمين كافة، وللأسف الشديد كان مقابل هذا الفخر والإعجاب الاستنكار من جانب كثير من القيادات العربية بل إن هذا النصر العربي الإسلامي النادر والفريد وصف عربيا بالهزيمة! الهزيمة يا عرب؟! فلم شكلت إسرائيل لجنة قضائية للتحقيق في أسباب هزيمتها أمام قوات حزب الله؟! وإن تعجب فعجب قولهم.

إن انتصار حزب الله على إسرائيل يؤكد لنا أمرين جد مهمين: أولهما أن الدول الإسلامية والعربية قادرة على هزيمة إسرائيل بشرط توافر الإرادة والعزم الصادقين. ثانيهما: إن السلاح الفعال الملائم لعنصر مهم وجوهري، ولكن لا تنحصر في هذا السلاح كما وكيفا كل عوامل وبواعث النصر.

❁ ❁ ❁

في إشادتنا حزب الله وقائده حسن نصر الله حيال مقاومة العدو الإسرائيلي لا يفوتنا في الوقت نفسه أن نوجه لحزب الله والشيخ حسن نصر الله كل التأنيب الذي يعتمل في قلوبنا من مشاعر الغضب والآلام المفجعة تجاه موقف الشيخ حسن نصر الله وحزبه ضد الشعب السوري الشقيق وما يلقاه ويعانيه من جزار وفرعون سوريا من قتل وتشريد وإبادة للأطفال والنساء والشيوخ، هذا البشار الذي حول أكثر من مليون سوري إلى لاجئين في تركيا والأردن ومصر يقاسون مرارة الجوع وقسوة البرد في مخيمات على حدودها بين الدولتين، إن حسن نصر الله أبى ألا يقف موقف المتفرج أمام هذه المأساة والكارثة الإنسانية بل طاوعته نفسه أن يمد بشارا بالسلاح والرجال والمال ليمضي هذا الطاغية في غيه وعتوه ودمويته. يا شيخ حسن يقول الله عز وجل: "إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" فهل

استبدلت بحزب الله حزب الشيطان؛ فأحذرك من حزب الشيطان فإن حزب الشيطان عاقبته الخسران. كما يقول الحق تبارك وتعالى: "اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُوْلَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ"(١).

❁ ❁ ❁

لقد ألمحنا فيما سبق أن الأمة المستخلَفة تملك القدرات والإمكانات المادية والاقتصادية قبل الوسائل العسكرية هذه القدرات والإمكانات الكفيلة باسترداد ما سلب من الأمة من أراض ظلت مستعمرة ومحتلة عقودا طويلة، بعد طرد أصحاب هذه الأراضي من أوطانهم.

والآن نضيف إلى ما سلف قائلين إن خير أمة أخرجت للناس تعاني أيضاً مشكلات اقتصادية وتنموية وحياتية مسئولية هذه المشكلات والأزمات كامنة في تشتت السياسات الحاكمة وانعدام وغياب التوجه الوحدوي والرؤية الاتحادية المستنيرة التي تجمع شمل الأمة إذا اشتكى فرد منها تداعى لها سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

والمؤسف والمحزن أن شعوبا وأمما أخرى غير مسلمة أدركت جدوى وفعالية الوحدة السياسية والاقتصادية فما كان منهم إلا أن بادروا مسرعين، بالتضامن والتعاون والتآزر فكان الاتحاد الأوروبي، والسوق الأوروبية وحلف الناتو، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك، وذلك بتوحيد العملة، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل قاموا بإلغاء الفواصل والحواجز الجمركية وشروط الإقامة المحددة وتأشيرات الدخول والخروج بين دولة وأخرى، بالإضافة إلى المواصلات البرية وشبكات الطرق، وحرية الانتقال أو ليست كل هذه القيم والمبادئ الإيجابية هي قيمنا ومبادئنا وسياستنا التي يحض عليها إسلامنا وقرآننا وسنتنا النبوية الشريفة.

نعم كان كل ذلك وأكثر منه وأعظم إنجازا وصلاحا وإصلاحا ولكن قبل إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤، وبعد جريمة إلغاء الخلافة صرنا إلى ما نحن عليه، الآن وسنظل كذلك إلى أن نعود إلى كل ما يدعونا إليه إسلامنا.

ومما يضاعف الحسرات والآلام المبرّحة، إن هؤلاء الذين تآمروا على إلغاء الخلافة، ومزقوا أوطاننا إربا إربا بمياه وأجواء إقليمية، وشعارات وقناصل وجوازات سفر وإقامة وتأشيرات محددة، إن هؤلاء قد انتهجوا نهجنا وسياستنا ومبادئنا في الوحدة السياسية

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

والاقتصادية والعسكرية كما أشرنا إلى ذلك آنفا. وتركونا نقاسي شقاق التشرذم والتفتت تحت ظل انفصام عرى الاعتصام بحبل الله المتين.

❁ ❁ ❁

واليوم أما آن لنا أن نستيقظ من سبات التفرق وشرور المؤامرات الدنيئة، ولعل قائلا يقول أو ليست لدينا مؤسسات وهيئات توحد صفوفنا؟ لدينا الجامعة العربية ولدينا منظمة المؤتمر الإسلامي؛ ونقول هذه المؤسسات إن لم تفرق الكلمة وتمزق الوحدة، وتشتت الجمع، فلا تصنع شيئا، لأنها لم تقم على أسس المودة والأخوة الإيمانية، والثقة اليقينية المتبادلة بين الرؤساء والملوك، بل إن الشك والريبة والتوجس هي الحاكمة والمسيطرة.

إنها ساحات ومجالات للخطب الرنانة، وللأسف الشديد مرة أخرى إن اتحادات الدول الأوربية ومنظماتها التعاونية هي الفعالة والإيجابية، إنها – بلا مبالغة – منظمات إسلامية تجمع دولا غير مسلمة، والأدلة والشواهد على ذلك كثيرة ومتعددة، اكتفى بمقال للأستاذ فهمي هويدي جاء فيه "إن اليونان حينما تعثرت قدم إليها الاتحاد الأوروبي ١٥٠ مليار يورو، وأن مصر حينما تعثرت قدمت إليها قطر ٤ مليارات دولار، والسعودية نصف مليار وتركيا مليارين، في حين أن هناك أقطارا عربية لديها فائض ٧٠٠ مليار دولار، ورفضت أن تقدم دولارا واحدا لمصر"[1].

ولا يظنن أحد أن الخليجيين معرضون للحقد من قبل غيرهم كلا. بل إن أحدا لا يوجه باللوم والتقصير للدول الخليجية، وأنها بأرصدتها المالية في بنوك أمريكا وأوروبا لم تسعف وتساعد أي دولة عربية (غير نفطية) أخرى تدهور اقتصادها وعملتها المحلية، إن اللوم والعتاب والتقصير موجهة إلى الدول العربية والإسلامية كافة، لأنها استسلمت وانقادت للسياسة الاستعمارية والمخطط الإجرامي لتمزيق الدول العربية بناء لمؤامرة سايكس/ بيكو.

والآن الآن لا وقت للبكاء على اللبن المسكوب، بل إن الجهاد – الآن – أصبح فريضة عينية للعودة إلى الأمة المستخلفة أمة ما قبل عام ١٩٢٤.

---

(١) جريدة "المصريون" ١٣/ ١/ ٢٠١٣.

الفصل الرابع

الإســـلام و المواطنـــة

الإسلام والمواطنة

إن منطوق الوطن أو الوطنية أو المواطنة منطوق وافد مستورد، ونستطيع القول أنه وليد الثورات التي قاومت المحتل الأجنبي، أو حكم الإقطاع أو الاستبداد السياسي، فقبل الثورة الفرنسية "جعل واضعو الدستور يخصصون جزءا منه كمقدمة للدستور سمى بإعلان حقوق الإنسان والمواطن وهو إعلان مكون من ١٧ مادة تقرر المادة الأولى منه أن الناس يولدن ويستمرون أحرارا متساوين أمام القانون، أما المادة السادسة فتقرر قاعدة المساواة بين المواطنين فالمواطنون أكفاء لا تمييز بينهم لأحد على الآخر في نظير القانون إلا بما اكتسب من فضيلة أو موهبة، لكل مواطن أن يشترك بشخصه أو بواسطة ممثله في صناعة القانون، أما السلطة العامة، فإنها أداة حماية حقوق الإنسان والمواطن"(١).

والظروف السياسية والاجتماعية التي أدت فرنسا إلى اختراع ماهية المواطن، هي نفسها التي أسهمت في خلق مصطلح "المواطن" في أمريكا، وذلك بعد المقاومة الأمريكية التي حررت أمريكا من الاحتلال الإنجليزي، فقد تم وضع دستور ينص على الاعتراف بحقوق المواطنين. إن ما حدث في فرنسا وأمريكا نموذج لميلاد كلمة المواطن ومشتقاتها في البيئات الأجنبية خارج النطاق الإسلامي، أما في المحيط العربي والإسلامي فلا نكاد نجد منطوق الوطن في الثقافة اللغوية العربية، وإن عثرنا على كلمة الوطن فهي ليست بمعناها السياسي أو الاجتماعي، وإنما بمعنى منزل ومأوى الإنسان فهذا هو ابن الرومي في أبياته الشعرية يصوغ الوطن بالمعنى الذي أشرنا إليه:

ولي وطن آليت ألا أبيعه

وألا أرى غيري له الدهر مالكا

لقد ألفته النفس حتى كأنه

لها جسد إن بان غودر هالكا

(1) موسوعة المواطنة المصرية ومستقبل الديمقراطية الصادرة عن مركز الدراسات/ جامعة القاهرة.

وحبيب أوطان الرجال إليهمو

مآرب قضّاها الشباب هنالكا

إذا ذكروا أوطانهم ذكّرتهمو

عهود الهوى فيها فحنوا لذالكا

ونعتقد أن غياب أو احتجاب لفظ (الوطن) في الثقافة السياسية واللغوية العربية حينا من الدهر مرجعه أولاً إلى: أن العوامل التي حتمت ظهور هذه الكلمة في أوروبا وأمريكا لم تتوافر أثناء قيام الخلافة الإسلامية، ثانياً: إن البلدان والديار الإسلامية كانت جميعها كالجسد الواحد يشد بعضها بعضا، بلا انفصال ولا تفرقة ولا خصام بين بلد وآخر.

أما بعد سقوط الخلافة عام ١٩٢٤ ومؤامرة سايكس/ بيكو – كما أسلفنا – تجزأت الأمة الإسلامية إربا إربا كل حزب بما لديهم فرحون، والتفرقة ضعف وهوان وشقاق حينئذ كان طبيعيا أن يقلد المغلوبُ الغالب – كما يقول ابن خلدون – وذلك باستيراد واستجلاب شعارات الثورة الفرنسية: المساواة والعدل والإخاء، وكأن الإسلام لم يدعُ إلى هذه القيم منذ أربعة عشر قرنا! وعاشت في ظلالها الأمة الإسلامية خلال تلك القرون. ولكن الصناعة أو المنتج الأجنبي المستورد خير وأفضل من الصناعة المحلية (!!!)

خلاصة القول المفيد إن الغرب وأمريكا معذوران عند لجوئهما إلى تشريع مبدأ المواطنة لإشاعة العدل والمساواة والحرية لأنها طوق النجاة أو سفينة نوح للإنقاذ من الظلم والطغيان والاستبداد التي سادت هذه البلاد. أما نحن المسلمين فلا عذر لنا، فلم يعهد تاريخنا عصر نبلاء، ولا رجال دين، ولا صكوك غفران ولا فوارق طبقية ولا عرقية، ولا عنصرية، ففي إسلامنا ما يغني ويكفي ويهدي إلى سعادة الدنيا والآخرة، وقد قدمنا بالأدلة التاريخية أن شريعتنا طبقت دون استثناء بين الحاكم والمحكوم، أو الفقير والغنى، أو القوى والضعيف بل بين المسلم وغير المسلم، خلافا لما تميز به الوطنية والقومية بين مواطن وآخر غير مواطن، يسمى في عرف الوطنية أجنبيا، فهذا الأجنبي ليس له حقوق المواطن، ولا ميزاته المادية والاجتماعية والأسرية والخدمية، أما الإسلام فشريعته ذات معايير إنسانية شاملة تفوق حسنات الوطنية الضيقة والمحدودة والمحكومة بحدود الوطن الجغرافية!

وعلى الرغم من ذلك فإن الإسلام ليس ضد حب الوطن، ولا يدعو إلى كراهية أحد لمسقط رأسه، ومراتع صباه، ووعاء ذكرياته، كلا إن الإسلام يذهب إلى أكثر من ذلك إنه

"يرى بعين الرأفة والحب والمودة والصداقة لجميع مفردات البيئة، بدءا بالإنسان إلى الحيوان والنبات وانتهاء بالجماد، ونستطيع القول مؤكدين وغير مبالغين أن الإسلام لم يكتف باحترام حقوق الإنسان والحيوان، وحسب، بل احترامه شمل النبات والجماد أيضاً"[1]. "عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب. فشكر الله له فغفر له، قالوا يا رسول الله فإن لنا في البهائم أجرا، فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر"[2]، وكان صلى الله عليه وسلم، "يُصغى (يميل) الإناء للهرة لتشرب وكان يواسي في موت طائر يلهو به أخو خادمه"[3]، وهو القائل – عليه الصلاة والسلام – "جبل أحد يحبنا ونحبه، على الرغم من أن لجبل أحد في ذهنية المسلم مشاعر سلبية".

إن حب الأوطان غريزة طبيعية في الإنسان، بدءا بالأسوة الحسنة للإنسانية صلى الله عليه وسلم القائل ساعة مغادرته مكة المكرمة "والله لأنك أحب البلاد إلى الله وأحب البلاد إليّ ولولا قومك أخرجوني ما خرجت" ولكن لأن الإسلام لما كان دين الوسطية والاعتدال في كل توجيهاته العبادية وغير العبادية، فإن الدين الحنيف إذا كان لا يصادر العواطف والميول الغريزية ما دامت لا تتصادم مع منهجه العقدي والشرعي، فإنه يرفض العصبية والعنصرية المقيتة في حب الوطن، لأن العصبية والعنصرية خروج ومجافاة لوسطية الإسلام، ورسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام نهانا عن العصبية "ليس منا من دعا إلى عصبية" نعم إن العصبية بغيضة لأنها تحض على الأنانية الانحيازية لطرف ضد طرف آخر. وأصدق مثال لهذه العصبية هو ما حدث في عام ٢٠١٠م في مباراة للفوز بكأس العالم الكروي بين الفريقين المصري والجزائري، الذي لم يكن تنافسا بين فريقين عربيين مسلمين، بل كان صراعا وقتالا أوشك على القضاء على العلاقات بين البلدين، وسحب سفير كل دولة من الأخرى، إنها العصبية المقيتة، وليست الروح الرياضية المحايدة بين شعبين شقيقين تجمعهما وشائج الدين والقومية والتاريخ، والأخوة التي تفرض فوز أحدهما في هذه المباراة فوزا للآخر، إن ما شاهدناه في المباراتين أولاهما في

(1) الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة للمؤلف.
(2) فتح الباري.
(3) عبقرية محمد للعقاد.

القاهرة والأخرى في السودان يدعو إلى الأسف والحزن؛ فكأن الفريقين عدوان لدودان وليسا أخوين شقيقين، وبعد كل مظاهر التطاحن والتصارع لم يفز أحد الفريقين بالكأس المتنازع عليها!!

إن هذا التقاتل والتشاحن غير المبرر وغير المشروع ذكرني بصراع دموي حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان في معركة "صفين" المشهورة وفي نهاية الحرب التي أسفرت عن آلاف الضحايا من القتلى والجرحى لكل من الطرفين، سئل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عن مصير القتلى في صف معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنه – فقال علي – رضي الله عنه – أرجو أن يكون قتلانا وقتلاهم في الجنة، أرأيتم هذه الروح الشفافة والنبيلة والصافية المبرأة من شبهة الهوى والأنانية والانحياز في معركة حربية مسلحة خلفت قتلى وجرحى وليست في مباراة كروية بالأرجل والأقدام تتقاذف كرة مطاطية!

خلاصة القول – كما أكدنا سابقا – لا يحجر الإسلام ولا يلغي عواطف أحد في الإشادة والتغني بحب وطنه وإنجازات مواطنيه الأبطال الذين لم يدخروا وسعا ولا جهدا في تحرير أوطانهم من المستعمرين المعتدين، ولكن الإسلام يرفض المغالاة والعصبية والحمية، ولا يكون حب وطن سببا في بغض وطن آخر ومواطنين آخرين.

ومن الغلو المرفوض إسلاميا قول أحمد شوقي:

وطني لو شغلت بالخلد عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

إذن فما دام صدر الإسلام لا يضيق بحب الأوطان فما موقف الإسلام إذا كان وطن ما وطنا لأغلبية مسلمة وأقلية غير مسلمة نقول إن الإسلام كدين ومنهج حياة إنساني شامل يأبى إلا أن يحيا في ظلاله جميع ذوي الأديان المختلفة حياة لحمتها وسداها العدل والإنصاف وحرية ممارسة شعائر الأديان جميعها دون إكراه أحد على اعتناق الإسلام، ففي أول دستور في المدينة يضعه رسول الإسلام محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم، اعتراف بحقوق غير المسلمين وهم اليهود في ذلك الوقت، هذا الدستور النبوي لم يكن خاصا بالمدينة المنورة ولا بالعهد النبوي فقط، وإنما دستور لكل زمان ومكان أجل في كل مكان وزمان، فقد رأينا كيف أن نصوص وروح دستور المدينة كان مطبقة وممارسة ممارسة

عملية أقربها في أقباط مصر، بعد أن تحرروا من إسار وأغلال الحكم الروماني، بعد أن حقق لهم الفتح الإسلامي الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، نقرأ مظاهر ابتهاج وسعادة الأقباط بفتح مصر بقيادة الصحابي عمرو بن العاص، نقرأها في كتاب الدكتور/ محمد حسين هيكل – رحمه الله – "الفاروق عمر" "أقام عمرو بفسطاط يفكر في تدبير سياستها وقد جعل حرية العقيدة من أسس هذه السياسة، فلما عرف رهبان القبط هذا الأمر، وتيقنوه خرج عدد عظيم منهم من الأديار التي كانوا قد اعتصموا بها من الأضطهاد وساروا إلى عمرو يعلنون له الطاعة. وكان عمرو حريصا على أن يعود البطريق بنيامين إلى رياسته الدينية لما عرفه من محبة القبط له وتعلقهم به. ومن ازدياد هذه المحبة في نفوسهم بعد فرار بنيامين إلى أقصى الصعيد واعتصامه هربا من الروم بالصحراء. لذا كتب للقبط جميعا أمانا خص فيه بنيامين بقوله: "فليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى الذين في أرض مصر والذين في سواها، لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة. وعرف بنيامين عهد الفاتح العربي، فخرج من مخبئه بالصحراء، وسار إلى الإسكندرية، فدخلها دخول الظافر في مظاهر من ابتهاج القبط لا يساورها خوف ولا يشوب صفوها كدر، ولما استقر بينيامين المقام بين أتباعه دعاه عمرو إليه وقابله بالترحيب والتكريم، وتحدث بينيامين إليه، وكان عذب المنطق، في تؤدة ورزانة، فأعجب الفاتح بحديثه، وجعل له ولاية الدين على القبط يسوسهم في أموره بما يشاء، وخرج البطريق القبطي من حضرة الفاتح الإسلامي ممتلئ النفس غبطة وابتهاجا، وعاد إلى الإسكندرية يلهج بحمده والثناء عليه ويقول لأتباعه: "عدت إلى بلدي الإسكندرية فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء. وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم".

ولم تكن الأيام لتزيده إلا ثناء وحمدا. فقد اجتمع القبط من حوله أحرارا في إقامة شعائرهم. فأصلح لهم كنائسهم وذهب إلى أديارهم. فكانوا يقابلونه في مواكب يحملون فيها بين يديه المباخر وسعف النخل"[1].

هذا هو الإسلام وسماحة الإسلام وعدل الإسلام في كل عصر وحين، سابق لكل الدعوات والنداءات القومية التي تصدر شعارات مثل الدين لله والوطن للجميع، شعار ثورة ١٩١٩ المصرية، أو مبدأ الإسلام "لهم مالنا وعليهم ما علينا" الذي استعاره بعض الوطنيين وجعلوه شعارا، بعد أن جعله الإسلام شعورا وممارسة عملية، وليس شعارا، كما

(١) الفاروق عمر. د. محمد حسين هيكل ص١٥٧.

رأينا فيما صنعه الفاتح الإسلامي عمرو بن العاص مع أقباط مصر، إن عمرو بن العاص لم يخترع أو يبتدع هذه السياسة من تلقاء نفسه، إنما – كما قلنا آنفا – طبق دستور المدينة الذي شرحه الرسول صلى الله عليه وسلم الذي اعترف بتنوع واختلاف الأديان في الوطن الواحد، وبالحقوق المشروعة لكل متدين بدين يخالف دين الإسلام.

❁ ❁ ❁

الحديث عن الوطن والمواطنة يستدعينا الحديث عن قضية الإنتماء إلى الوطن المحلي الإقليمي والوطن الإسلامي الكبير وعلى الرغم من اعتقادي أن حديثنا في الفصل السابق عن الاعتصام والأخوة الإيمانية والتعاون على البر والتقوى فيه الغنى والكفاية عن قضية الانتماء الوطني، فقد أشرنا في هذا الفصل أيضاً أن ثمرات وخيرات الإسلام تفوق وتزيد على مزايا وحسنات المواطنة، على الرغم من ذلك فإن الملاحظ أن حب الوطن والانتماء إليه والاعتزاز به، قد يشوبها أحيانا بعض الشوائب السلبية، مرجعها ومردها عدم تمتع أو نيل المواطن بعض حقوقه الوطنية داخلياً وخارجياً، هذه الحقوق التي يكفلها الإسلام للمواطنين كافة مسلمين وغيرهم، ومن هذه الزاوية وزوايا أخرى تنبع شمولية حقوق الإنسان إسلاميا وغلبتها على الحقوق الوطنية. إذ أمكننا أن نضرب بعض الأمثلة على تراجع بعض حقوق المواطن في بعض المجالات نجد أن:

• من أهم صور هذا التراجع وضوحا وفجاجة هو عدم المساواة وخاصة في مجال بعض الوظائف ذات البريق والوجاهة الاجتماعية والمادية، فمنذ سنوات ليست بعيدة قبل ثورة ٢٥ يناير، أجريت مسابقة لشغل وظائف قنصلية، تقدم إليها مئات الشباب ولا أقول الآلاف، وكان أول الناجحين في هذه المسابقة شابا والده فلاح في إحدى قرى الوجه البحري، وعلى الرغم من نجاحه المتميز والمتفوق على أقرانه المتقدمين في المسابقة، رُفض تعيينه وعلة الرفض. أنه غير لائق اجتماعيا!!! أصيب الشاب باليأس والإحباط وعاد إلى قريته، وهناك مات منتحرا.

• شبابنا رجال المستقبل، وصناع الحياة القائمة على العلم والابتكار والإبداع، الكثير منهم الذين لا يجدون فرصة العمل، يضطرون إلى الهجرة إلى مدن أوروبا، ولكن وسيلة هجرتهم قوارب متهالكة أو نعوش عائمة، يلقون مصرعهم غرقي على شواطئ إيطاليا واليونان وغيرهم الذين يلقون نفس المصير ولكن منتحرين في أوطانهم، وتحت سمع وبصر ذويهم ومواطنيهم. إن في الإسلام قاعدة فقهية وحضارية تقدس الحياة، نص هذه

وحضارية تقدس الحياة، نص هذه القاعدة: أن من مات جوعا على جيرانه والمحيطين دفع الدية لأولياء هذا الذي مات جوعا.

في ظل هذا المناخ السياسي والاجتماعي هل يحق لنا أن نطالب أحداً بالانتماء الوطني أو القومي؟ رب قائل يقول إن ما تذكره من هذه الأمثلة، إنما هي استثناء من القاعدة الكلية العريضة. وأنا أقول إنه من الجائز ذلك ولكن علينا جادين أن نمنع تكرار هذه الاستثناءات، ليس بالإجراءات الأمنية، وإنما بإتاحة فرص العمل الحقيقية التي تناسب مؤهلات هؤلاء الشباب العلمية والأمل معقود على مصر بعد الثورة.

هذه المآسي داخلية في نطاق الوطن، وهناك مآس أخرى خارج الحدود، فالعديد من المصريين الذين يعملون في كثير من الدول العربية، لا يعاملون المعاملة العادلة التي يتمتع بها غيرهم من الدول الأخرى فكثير من هؤلاء المصريين يتعرض للفصل من عمله دون إبداء الأسباب أو لأسباب واهية ومنهم من يكون القتل مضيره، لأسباب مجهولة أيضاً. أين حقوق هؤلاء الوطنية، أين الرعاية الفعلية والقانونية من جانب دولتهم؟

أخيراً أقول أن الانتماء للوطن تقابله حقوق كاملة للمواطن يكفلها القانون، وبدون هذه الحقوق فأي مواطن غريب في وطنه وخارج وطنه.

وصدق الإمام علي كرم الله وجهه إذ يقول:

الفقر في الوطن غربة، والغنى في الغربة وطن.

الفصل الخامس

الدولة الدينية والدولة الإسلامية

الدولة الدينية والدولة الإسلامية

تاريخ العداء للإسلام قديم، ومنذ شروق شمس الإسلام، في شبه الجزيرة العربية، قبل أربعة عشر قرنا واجه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومن آمن به – رسولا ونبيا – من القريشيين وغيرهم بصور متعددة من التعذيب والإيذاء البدني والنفسي، فصبروا وصابروا وجاهدوا في الله حق جهاده، حتى كتب الله تعالى لدين التوحيد والحق والعدل، النصر المبين، والهزيمة الساحقة الماحقة للشرك والباطل والظلم والوثنية ولكن ظلام الباطل والفتنة والافتراء يلبث خافتا منكسرا حينا ثم يعاود هجومه على نور الحق المبين مرتديا أثوابا بالية ومتذرعا بحجج هي أوهي من بيت العنكبوت، تلك الحجج والذرائع تتغير وتتلون، بتغير وتلون الظروف والملابسات المحكومة بالثقافة السياسية والاجتماعية لكل عصر وجيل فبعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وتولية أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – أعباء الخلافة الأولى، واجهت الدولة الإسلامية شوكة في عضدها ممثلة في فتنة الردة وإدعاء النبوة ومانعي الزكاة. ولقد وفق الله عز وجل الخليفة الأول في إخماد هذه الفتن في مهدها.

ولم يزل الصراع مستمرا بين الحق والباطل، ويأبى الباطل إلا أن يُلقى بسهامه ورماحه الطائشة مستسلما مدحورا، فقد واجه الخليفة الرابع علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – بفتنة الجدال بالباطل لدحض الحق وأنى لهم ذلك، تلك فتنة الخوارج التي قامت على سوء الظن أو الجهل في فهم بعض آيات القرآن ثم أبتلى العصر العباسي بفتنة الفكر الاعتزالي وفتنة خلق القرآن، وظهور الشيعة بطوائفهم المختلفة، كل هذه السهام الطائشة – كما قلنا – والتي بدأت في مستهل عصر الخلافة الأولى، واستمرت باختلاف الدرجة كما وكيفا، مستهدفة النيل من قوة وصلابة ومتانة وعظمة عقيدة الإسلام وشريعته ولكن هيهات، هيهات، كناطح صخرة يوما ليوهنها!

وها هو عصرنا الحالي لم ينج من تلك الحملات حملات الإفك والزور والكذب والبهتان، أجل إن المفتونين بعصرنا الحديث ساروا في درب اخوانهم أخوان الشياطين القدماء في مهاجمة الإسلام وإن اختلفت وسيلة الهجوم – كما قلنا – من عصر إلى عصر

هؤلاء المخدوعون بإنجازات العصر الحالي العلمية ومخترعاته الجبارة التي مكنت إنسان العصر من الصعود إلى سطح القمر.

واستطاعت بثورة الاتصالات، والأقمار الصناعية والشبكة العنكبوتية، والفضائيات أن يحول الكون إلى قرية صغيرة كما يقولون، والإسلام-، كما هو معلوم لكل من يعي إنجازات حضارة الإسلام العلمية – لا ينكر تقدما علميا وابتكارا تكنولوجيا ما دامت هذه الإنجازات مسخرة ومستخدمة في مصلحة الإنسانية، بل يشجعها ويدعو إلى أكثر وأعمق من ذلك نجاحا وعبقرية. إن معطيات الكيمياء والفيزياء والإحياء، وعلم النبات، لا تتعارض مع الإسلام ولا مع أي دين من الأديان السماوية، هذه بداهة مسلمة وقناعة مطردة.

إذا عدنا إلى من نصبوا أنفسهم قادة للفكر والعلم والثقافة، وحق توجيه المجتمع وتوعيته وإقالته من عثرات ومفاهيم مغلوطة – كما يزعمون – تحول دون تقدم هذا المجتمع، أو بلوغه مبلغ الدول الغربية التي بلغت شوطا بعيدا في الازدهار العلمي والتقني والحضاري فإن من أهم هذه المفاهيم المغلوطة – حسب إدعائهم والمسببة لتخلف وتأخر الشعوب العربية والإسلامية هو دينية الدولة المصرية فالمادة الأولى من دستور ١٩٧١ يعلن أن دين الدولة الإسلام. والمادة الثانية تنص أن مبادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع، وبناء على هاتين المادتين في الدستور الجديد فإن الدولة المصرية دولة دينية وليست دولة مدنية – كما يزعمون. فأني لنا اللحاق بركب الأمم المتقدمة وهاتان المادتان في الدستور قيدان معوقان من الانطلاق نحو المستويات الأرقى في المدنية والحداثة.

وللرد على هذا الافتراء الكاذب:

نقول أولاً: إن مطالبة هؤلاء بالدولة المدنية ونبذ الدولة الدينية، هذه المطالبة وإن بدت حديثة أو بريئة إنما هي صورة من صور العداء للإسلام كالصور السابقة الذكر، وهذه الصورة الأخيرة أو الوليدة تختلف عن أخواتها السابقات في الشكل والمظهر ولكن المضمون والجوهر والهدف لا تكاد تختلف

ثانياً: ما هي الدولة الدينية، وما هو موطنها وبواعث نشأتها التاريخية والدينية والسياسية والاجتماعية ؟

" كان (الدين) أو (النص) سائدا طوال القرون الوسطى، في توجيه الإنسان سواء في سلوكه وتنظيم جماعته، أو فهمه للطبيعة وكان يقصد بالدين (المسيحية). كان يراد بذر المسيحية والكثلكة. وكانت الكثلكة تعبر عن البابوية، والبابوية نظام كنسي ركز "السلطة العليا، باسم الله في يد البابا، وقصر حق تفسير الكتاب المقدس، على البابا وأعضاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى وسوى في الاعتبار بين نص الكتاب المقدس وإفهام الكنيسة الكاثوليكية وجعل عقيدة التثليث عقيدة أصيلة في المسيحية، كما جعل "الاعتراف بالخطأ" و"صكوك الغفران" من رسوم العبادة.

حتى القرن الخامس عشر. فقام مارتن لوثر وكافح تعاليم الشيطان، كما سماها وهي تعاليم البابوية والكنيسة الكاثوليكية فحارب صكوك الغفران وعقيدة التثليث، كما حارب سلطة البابا وجعل السلطة الوحيدة في المسيحية هي الكتاب المقدس وكلمة (النص) "استمر هذا الوضع حتى النصف الثاني من القرن الثامن عشر وهو ما عرف بعصر (التنوير) ومن مميزات هذا العصر:

- نمو شعور العقل وإحساسه بنفسه وبقدرته على أن يأخذ مصير مستقبل الإنسانية في يده، بعد أن يزيل كل عبودية ورثها من قبل وهي عبودية الكنيسة وتعاليمها، حتى لا تحجبه عن التخطيط الواضح لهذا المصير.
- الإيمان بإله ليس له وحي، وليس بخالق العالم وإبعاد الدين عن مجال التوجيه وإحلال العقل محله.[1]

إن عصر التنوير وضع نهاية للسلطة البابوية، وفصلا وقطيعة أبدية بين الدين والحياة، واستبعاد الدين المسيحي عن التدخل في الشأن الحياتي للإنسان، هذا الاستبعاد الذي عرف بعد ذلك بفصل الدين عن الحياة.

والآن نود أن نوجه أسئلة مهمة وضرورية لبعض الكتاب المعاصرين أو المثقفين، ولا نقول العلمانيين الذين لعبوا دورا كبيرا في وضع وصياغة دستور ٢٠١٣ زاعمين أو مدعين أن النص في هذا الدستور بـ "أن الشريعة الإسلامية مصدر من مصادر التصريح، تصريح بالدولة الدينية، لذلك فقد ألغوا من الدستور السابق الإشارة إليه.

---

(١) بتصرف من كتاب الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار د. محمد البهي.

• هل تاريخ الإسلام تعرض لما تعرض له الدين المسيحي من صراع بين رجال دين ورجال دنيا ؟

• هل كان في الإسلام رجال دين احتكروا فهم القرآن الكريم لأنفسهم، لا يتعدى هذا الفهم لأحد غيرهم ؟

• هل كان في الإسلام كثلكة وتثليث ورسوم وصكوك غفران ؟

• هل شهد تاريخ الإسلام تعاليم باباوية، تصدى لها أمثال مارتن لوثر، بعد أن سمى هذه التعاليم الكنسية تعاليم الشيطان ؟

نخلص من ذلك ومستنتجين أن الذين حاربوا الدولة الدينية كان يعنون بالدين دينا معينا هو الدين المسيحي عندما أحتكر فهمه القساوسة والأساقفة لحاجات وأغراض ومنافع شخصية ومادية تعود إليهم. والذين يدعون اليوم إلى رفض وتنحية الدولة الدينية إنما يعنون بها الإسلام هؤلاء لا تتجاوز أغراضهم عن غرضين لا ثالث لهما: فهم إما قد عميت أبصارهم وبصيرتهم عن التمييز والتفرقة بين تاريخ الإسلام وتاريخ المسيحية أو أنهم يدركون الاختلاف البين والجليّ بين التاريخين ولكن عداءهم وحقدهم وبغضهم للإسلام دفعتهم إلى استبعاد الإسلام عن توجيه الحياة الإنسانية.

ونقول إن الدين المسيحي وإن كان قد فصل عن الحياة الأوروبية والأمريكية ولكن هذا الفصل لم يدفعهم إلى التخلي والتنكر لدينهم المسيحي.

وهذه هي الأدلة :

• في عام ١٩٨٤ نشرت جريدة واشنطن بوست مقابلة مع الرئيس ريجان أجراها معه الصحفي توم داين Tom Dine نسب إلى الرئيس الأمريكي ريجان قوله "إنني أعود إلى النبوءات القديمة المذكورة في العهد القديم، وإلى المؤشرات حول هرمجيدون، فاتساءل بيني وبين نفسي ما إذا كنا الجيل الذي سيرى تحقق ذلك لا أعرف إذا كنت لاحظت معي أيا من هذه النبوءات مؤخرا، ولكن صدقني إنها – أي النبوءات – تصف ما نمر به الآن".

بهذه الخلفية العقدية وافق ريجان في عام ١٩٨٦ على قصف ليبيا لأنه اعتبرها "عدو الله" وعندما تمكن التحالف الإستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي من إخراج القوات الفلسطينية من لبنان عام ١٩٨٢م اعتبر ريجان في خطاب له ذلك الإنجاز "مفخرة

لأمريكا" لأننا معنيون بالبحث عن السلام في الشرق الأوسط ليس كخيار إنما كالتزام معنوي (ديني)[1].

• "إن العلاقة بين العمل السياسي – العسكري والإيمان الديني بهذه النبوءات، هي علاقة مباشرة، ذلك أن هذه الحركة الكنسية تعلم إتباعها أن من واجب الإنسان المؤمن أن يوظف كل إمكاناته، وقدراته لتحقيق إرادة الله، كما تحددها هذه الحركة الدينية وأن الله يختار من الناس من يؤهلهم ويمكنهم من القيام بهذا الدور المساعد لتحقيق الإرادة الإلهية، ولذلك كان الرئيس الأسبق ريجان يقول: إنه يتمنى أن يمن الله عليه بشرف كبس الزر النووي لتحقيق إرادة الله في وقوع هرمجيدون ومن ثم بعودة المسيح.

• تقول مجلة التايم الأمريكية في تعليقها على زيارة البابا جون بول الثاني لأمريكا عام ١٩٧٩ "خلال عام واحد قفز الحبر الأعظم إلى بؤرة الضوء كريم متألق يتعطش العالم إليه، زعيم قادر على تحريك الناس ليحققوا إنجازات أكبر من تفكيرهم، إنه رجل كل العصور وكل المعتقدات"، وقالت نيوز ويك "إن الطريقة التي تثير بها الحماس توحي وكأن الروح القدس قد ظهرت في أمريكا"(٢).

• وأعلن المذيع في التليفزيون الأمريكي "من معجزات البابا أنه في سنة واحدة أسقط عبدي أمين وأحل حاكما مسيحيا محله، وأسقط بوكاسا الحاكم الأفريقي الذي تجرأ واعتنق الإسلام، أسقطته قوات أكبر دولة كاثوليكية في العالم"(٣).

• "في بولندا: وجدنا الشعب البولندي في مطلع عام ١٩٧٦م يستعد لاستقبال البابا في أرض آبائه وأجداده استقبال الفاتحين، واشتركت السلطة في الاستقبال الرسمي وكانت هتافات المستقبلين "نريد الله في مدارسنا، نريد الله في منازلنا، الله هو ربنا، وحركت هذه الزيارة بولندا – من جديد – وأكدت على أن إيمان الشعب لا يزال حيا على الرغم من ثلاثين عاما من الإلحاد الرسمي"(٤).

"حتى إن الرئيس بوش نفسه يقول: إن الحرب على العراق هي: مهمة إلهية، يقوم بها من أجل عالم أفضل"[5].

---

(١) الدين في القرار الأمريكي. الأستاذ محمد السماك. هدية مجلة الأزهر

(٢) الحوادث اللبنانية حول زيارة البابا لأمريكا عام١٩٧٩/ حقيقة العلمانية د. يحيى هاشم حسن.

(٣) نفس المرجع السابق.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) المصدر السابق.

• وفي أمريكا الجنوبية: عاد البابا جون بول الثاني في الآونة الأخيرة إلى مواصلة جولاته في بعض دول أمريكا الجنوبية، حيث ما زالت هناك بقايا نظم عسكرية تحكم بغير إرادة شعبية وتسيطر على مصائر هذه الشعوب بلا رادع أو وازع من ضمير – وقد قال البابا للصحفيين إن على الكنيسة هناك مشاركة الشعب في كفاحه من أجل الديمقراطية ثم ألمح البابا إلى الدور الذي تلعبه الكنيسة في الفلبين، وأدى إلى إسقاط نظام الديكتاتور ماركوس وقال: إن الكنيسة في شيلي تلعب دورها في حشد القوى المعتدلة في تحالف يواجه حكومة رئيس شيلي الديكتاتورية"(١).

ونود أن نلفت أنظار – الذين يرددون دائما مقولة "لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين" ومن هؤلاء بعض أعضاء لجنة الخمسين في دستور ٢٠١٣ – إلى قول البابا جون بول "إن على الكنيسة هناك (في أمريكا الجنوبية) "مشاركة الشعب في كفاحه من أجل الديمقراطية" الخ أو ليس قول البابا هذا تأكيدا لدور الدين في السياسة الذي يتغلغل في جميع أنماط الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأسرية والعسكرية والثقافية).

• في احتفال إسرائيل الأخير عام ٢٠١٠ بعيد إنشائها قال نيتنياهو رئيس وزراء إسرائيل أن القدس عاصمة إسرائيل لأن القدس مذكور في التوراة ٨٠٠ مرة، وكان هذا الرئيس نفسه قال في مناسبة سابقة أن إسرائيل دولة توراتية، وفي تصريحيه الأول والثاني لم ينقده أحد داخل إسرائيل أو خارجها بأنه يدعو إلى دولة دينية، بل أن نيتنياهو لا يبالي بأحد، فقد اشترط أخيرا على الفلسطينيين إذا كانوا يرغبون في إقامة دولتهم أن يعترفوا بيهودية دولة إسرائيل هل هناك تحد واستكبار أفظع وأشنع من ذلك؟ وفي الوقت نفسه اعتزاز وتفاخر واستمساك بعقيدتهم الباطلة؟ وتنكر واستخفاف واستهزاء بعقيدة ودين من سواهم؟ في الوقت الذي يحاول البعض المحسوبون على المسلمين يتنكرون من دينهم الصالح والمصلح لكل زمن ومكان إلى قيام الساعة.

وهذا رأي أديب وناقد أدبي بريطاني هو ت.س إليوت يؤكد فيه عدم انفصال أو تخلي أوروبا عن مسيحيتها على الرغم من ادعائها العلمانية يقول: في نفس الوقت إن هذه العلمانية لم تقتلع المسيحية من جذورها ولكنها أخذت تتعايش معها فقد تضاءلت الفروق الثقافية بين المؤمن والكافر وانطمست الحدود بين الإيمان والكفر. وأصبحت المسيحية أكثر مرونة والإلحاد أكثر سلبية، فكثير من الناس – في انجلترا بخاصة – يعيشون على أعراف غير محدودة مغلفة بضباب كثيف، وأولئك الذين يعيشون وراءها في الجهل، وعدم

(١) جريدة الأحرار ١٩٨٧/٦/٢٩

المبالاة أكثر مما يعيشون في صحراء الإلحاد الواضح، والإنجليزي الكافر ذو المنزلة الاجتماعية – مهما تكن هذه المنزلة متواضعة – يجري على سنن المسيحية غالبا في مناسبات الولادة والموت والزواج، وليس لملحدي هذه البلاد حتى الآن وحدة ثقافية فأنماط إلحادهم تختلف طبقا لثقافة الطائفة الدينية التي تربوا هم وآباؤهم وأجدادهم[1].

❁ ❁ ❁

وأخيراً هل نسينا ما قاله الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش (الابن) عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، متهما الإسلاميين بتدبيرها قال: فلنعلنها صليبية، ثم اعتذر بعد ذلك ولكنه اعتذار أقبح من الذنب، فكما قال المثل العربي: ما فيك يظهر على ما فيك.

(١) ملاحظات نحو تعريف الثقافة ت س اليوت/ حقيقة العلمانية.

الفصل السادس

عالمية الأخلاق الإسلامية

عالمية الأخلاق الإسلامية

أخلاق الإسلام لغة تخاطب عالمية، لغة عالمية يفهمها جميع البشر على اختلاف لغاتهم القومية، ولهجاتهم المحلية والإقليمية، وتباين جنسياتهم وأعرافهم، وألوانهم، وطبقاتهم الاجتماعية، ومستوياهم الثقافية والعلمية، وانتماءاتهم الدينية، ذلك أنه منذ أن خلق الله تعالى الإنسان الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لم يختلف اثنان كائنا من كان، في هوية الخير، والفضيلة والحق والعدل، والعفة كما أنه في الوقت نفسه. مفهوم الشر والظلم والعدوان والفساد والفسق والفجور، والكذب والخيانة معلوم للناس أجمعين، منذ أن هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، وإلى قيام الساعة، أجل أن الخير والشر مركوز معرفتهما بالفطرة الإنسانية، وقد بعث الله عز وجل الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام وأنزل الكتب السماوية الأربعة، مبشرا بعاقبة الصلاح والإصلاح في الحياة الدنيا والآخرة، ومنذرا ومحذرا بمصير الشر والفساد والفسق والفجور عاجلا وآجلا في الأولى والآخرة.

- لذلك نرى الإسلام- على الرغم من محاربته حمية ونخوة الجاهلية الأولى - لم يرفض كل ما كان سائدا وشائعا في العصر الجاهلي من الأخلاق والعادات والسلوكيات، بل أقر بعضها وعدل البعض، وأنكر كل ما لا يتلاءم والفطرة السليمة. يقول المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مثنيا على حلف الفضول الجاهلي: حضرت في الجاهلية حلفا لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت، ذلك أن هذا الحلف كان دعوة لمناصرة المظلوم وإنصافه، ورفضا للظلم وأكل أموال الناس بالباطل، وهذه من القيم التي يدعو إليها الإسلام، والتمسك بها. كذلك فإن كثيرا من الفضائل والمحامد والمكارم كانت شائعة في عصر ما قبل الإسلام مثل الشجاعة والجود، وإغاثة الملهوف وإعانة الضعيف، وإن كان بعضها محكوما بالعصبية والحمية الجاهلية، فالشجاعة والسخاء، ونصرة المظلوم كانت مبعثها ودافعها أحيانا التباهي والتفاخر بالأنساب والأحساب، والنعرة القبلية، كما كانت روح الأثرة والأنانية غالبة على بعض القبائل، والتي ظهرت في قول أحد شعرائهم:

ونشرب إن وردنا صفوا

ويشرب غيرنا كدرا وطينا

كما أن الدافع إلى التقاتل والتخاصم كان لمجرد التقاتل والتخاصم.

وأحيانا على بكر أخينا

إذا لم نجـد إلا أخانـا

وهل أنا إلا من غزِية إن غوث

غويت وإن ترشد غزِية أرشد

هذه النماذج السلبية من الأخلاق والعادات السلوكية المرفوضة إسلاميا – لكي نكون منصفين – لم تستغرق بالقطع الجزيرة العربية كلها قبل الإسلام، ولذلك حاولنا أن نثبت ما أثبتنا منها بالجزئية الموجبة. يشهد لنا بها قول الشاعر الجاهلي لبيد.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وكل نعيـم لا محالة زائـل

هذا البيت الذي ما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: أعظم قول قاله لبيد، ومن المؤكد أن الشعر الجاهلي لا يخلو من مثل قول لبيد، ولكن الخوض والنقصى في هذا الجانب ليس مجالنا البحثي.

❁ ❁ ❁

إن للأخلاق الكريمة أصولا وبواعث متعددة منها الفطرة السليمة والعقل والفطنة، والاكتساب، فالفطرة أو صبغة الله عز وجل كما جاء في قوله تعالى: "صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ"(1)، إن من رزق الفطرة يؤتي هداية ورشدا وصلاحا كثيرًا تدعوه إلى فضائل ومكارم عظيمة، وإن زايد بن عمرو فطرته السليمة منعته – قبل الإسلام – من عبادة الأوثان أو أن يأكل شيئا مما يذبح لهذه الأوثان قائلاً لقومه "أيرسل الله قطر السماء، وينبت بقل الأرض ويخلق السائمة فترعى منه، وتذبحونها لغير الله، والله ما أعلم على ظهر الأرض على دين إبراهيم غيري، ومن أبياته الشعرية قوله(2):

(1) سورة البقرة، الآية 138

(2) الفاروق عمر، د. هيكل نقلا من كتاب الأغاني

أسلمت وجهي لمن أسلمت ... لـه المـزن تحمـل عـذبا زلالا
وأسلمت وجهي لمن أسلمت ... لـه الأرض تحمـل صـخرا ثقـالا
دحاهـا فلما استوت شـدها ... سواء وأرسى عليهـا الجبـالا

كما أن العقل والفطنة والزكانة داعية وموصلة إلى معرفة الفضائل الخلقية وقيمتها الجليلة، فهذا مارتن لوثر الذي ثار على فساد رجال الكنيسة واحتكارهم تفسير الكتاب المقدس تفسيرا يلبي مصالحهم الشخصية – كما سبق الحديث عنه، هذا الرجل أدرك بذكائه خيرية الأخلاق وعظمتها فقال: "ما سعادة الأمم بكثرة أموالها ولا بقوة استحكاماتها، ولا بجمال مبانيها، وإنما سعادتها بأبنائها الذين تثقفت عقولهم، وبرجالها الذين حسنت تربيتهم واستنارت بصائرهم، واستقامت أخلاقهم، ففي هؤلاء سعادتها الحقة وهؤلاء هم قوتها الرئيسية وعظمتها الجوهرية"(1).

كذلك فإن للاكتساب والتأثر دورا مهما في التربة الأخلاقية الكريمة، وذلك بمعايشة الفرد في بيئة تتمتع برفعة الأخلاق وسموها ونبلها.

إن من أصول وبواعث الأخلاق – كما ألمحنا – الفطرة والعقل والاكتساب. ونضيف هنا قائلين إن هذه البواعث للناس كافة أما القدوة والأسوة الأخلاقية للإنسانية، خير الخلق وسيدهم محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقد تولى تربيته وتأديبه وتعليمه ربه وخالقه ومرسله إلى الناس كافة سبحانه وتعالى العزيز الحكيم يقول جل في علاه: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ"(2)، ويقول عز وجل: "وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ"(3)، وقال سبحانه: "وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا"(4)، ويقول صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فأحسن تأديبي" نعم إن رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يجلس إلى معلم أو مرب، إنما كانت أخلاقه وخصاله نابعة من الكتاب العزيز الذي أنزله عليه، فقد كان قرآنا يمشي بين الناس، فكانت خلقه القرآن كما قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله تعالى عنها – ونال بذلك الثناء

(1) الأخلاق بين النظرية والتطبيق، د. عبد اللطيف محمد.
(2) سورة آل عمران، الآية:١٥٩.
(3) سورة النحل الآية ١٢٧.
(4) سورة النساء، الآية:١١٣.

الرباني في قول الحق تبارك وتعالى "وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"[1] ويقول الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله في تعليقه على هذه الآية كلمة "على" للاستعلاء تدل على أنه صلى الله عليه وسلم مستعل على هذه الأخلاق ومستول عليها، وأنه بالنسبة إلى هذه الأخلاق الجميلة كالولي بالنسبة إلى العبد، وكالأمير بالنسبة إلى المأمور"[2]، ويكفي رسولنا ونبينا شرفا وعزا ومكرمة أن الله تعالى جلت قدرته وتعالت أسماؤه وصفاته لم يقسم بحياة أحد من الأنبياء والمرسلين – كما يقول عبد الله بن عباس – رضي عنهما إلا بحياة حبيبه وصفيه محمد صلوات الله وسلامه عليه فقال تبارك وتعالى: "لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ"[3]، ومن المعلوم المؤكد أن كل مُقْسِم بشيء لا يقسم إلا بالشيء العظيم عنده، والله تعالى العظيم الجليل – سبحانه – أقسم بكثير من مخلوقاته لعظمتها وجلالها كما أقسم عز وجل بحياة رسوله ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم لأنها حياة عظيمة ولا يعلم عظمتها وجلالها ولا يقدر قدرها إلا الذي لا عظيم ولا جليل ولا عزيز سواه تباركت أسماؤه وتعالت قدرته سبحانه ملك الملوك. وإذا كانت شدة البلاء وعنف الأذى وقسوة الفتنة، وتتابع التعذيب البدني والنفسي والمعنوي تجلى معادن النفوس القوية، كما تميز النار الذهب الخالص النقي من المعادن المزيفة والمغشوشة وإن بدت للأبصار متلألئة لامعة فإن رسولنا وحبيبنا محمدا صلى الله عليه وسلم حياته المكية بعد بعثته مرآة صافية مجلوة وقدوة طيبة للشخصية الأخلاقية القائدة والهادية للحياة الإنسانية إلى كل ما يصلح ويقيل عثرات طريقها إلى خير الدنيا وجنة الآخرة.

كما ألمحنا فإن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه – رضي الله عنهم – في مكة وقبل الهجرة إلى المدينة كانت حياة حاربها كل من وقف في سبيل دعوة التوحيد، أجل كانت حربا شعواء ضروسا أعلنها زعماء الشرك في مكة المكرمة – بلد الله الحرام، ومن هؤلاء الزعماء أبو جهل وأمية بن خلف وعقبة بن معيط وأبو لهب والعاص بن وائل السهمي والوليد بن المغيرة وغيرهم من صناديد المشركين عباد اللات والعزى، ولكننا لن نتعرض لجميع صور العداء والتعذيب التي لقيها الرسول وأصحابه، اكتفاء واقتناعا منا بما لدى القارئ العزيز من السيرة النبوية المكية.

---

(1) سورة القلم.
(2) مفاتيح الغيب
(3) سورة الحجر، الآية ٣٢

وعلى الرغم من ذلك فإننا نعرض لنموذج واحد من صنوف الصد والأذى والإعراض عن دعوة الحق والعدل والوعد الصادق للناس بإخراجهم من الظلمات إلى النور. ذلكم النموذج هو خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، بعد أن ابتلى عليه الصلاة والسلام بابتلاءين شديدين هما موت عمه أبي طالب، وزوجه خديجة بنت خويلد، بالإضافة إلى البلاء المعهود واليومي المكرر كل ساعة وحين وهو تكذيب قومه لدعوته وصدهم وتعذيبهم واستهزاؤهم. فقد توالى عليه صلى الله عليه وسلم الحزن على وفاة أحب الناس إلى قلبه، وضيق صدره على ما يلقاه من قومه، فاتجه إلى بيئة أخرى هي الطائف، عله يجد من يستجيب للدعوة إلى الله عز وجل. وندع الحديث للإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى – ليصف لنا ما صادف البشير النذير في الطائف، مختصرين ما جاء في كتابه: زاد المعاد في هدي خير العباد، يقول: رحمه الله "خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصرا وآذوه مع ذلك أشد الأذى فقالوا: أخرج من بلدنا وأغروا به سفهاءهم، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى دميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف راجعا إلى مكة محزونا، وفي مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهور، دعاء الطائف: **"اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ، فلا أبالي غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل عليّ غضبك أو أن ينزل بي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك"**. وبعد هذا الدعاء الخالص والتضرع واللجوء إلى العزيز الحكيم الذي لا ملجأ ولا منجي إلا إليه – سبحانه – ولا سيما عند الشدائد والملمات، فما أقرب وأسرع الإجابة الربانية إلى دعاء عباده المخلصين، ونبينا هو سيد وقدوة المخلصين وإمامهم، يقول الإمام ابن القيم: بعد هذا الدعاء "أرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة وهما جبلاها اللذان هي بينهما، فقال: لا، بل استأنى بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئا" صلى الله تعالى عليه وسلم حقا إنه الرحمة المهداة والنعمة المسداة ذو الخلق العظيم.

يقول القدوة والنموذج المثالي للأخلاق الكريمة محمد بن عبد الله – صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" فالأمة الإسلامية هي الأمة المستخلَفة، ومن شروط الاستخلاف الإلهي ودعائمه الراسخة الأخلاق كفن وسياسة عملية ناجحة ليست

لتعامل البشر بعضهم ببعض وإنما للتعامل بين الإنسان وجميع الكائنات الحية كما سيأتي ذلك لاحقا، وأن العبادات والعبادات الركنية في الإسلام إذا فقدت نتائجها الأخلاقية ليست مقبولة ولا مجدية كما سبق الإشارة إلى ذلك في حديث المفلس.

إن الخطاب الدعوي الإسلامي والموجه لغير المسلمين ينبغي أن يتحلى ويخضع للسياسة الأخلاقية، يقول الحق تبارك وتعالى مخاطبا رسوله إلى الناس كافة "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"(1)، ويقول عز وجل: "وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"(2).

ولنقرأ التوجيه الإلهي لرسول الله وكليمه سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم حين أمره بالذهاب إلى فرعون عدو الله وعدو موسى الذي أدعى الألوهية والربوبية في مصر. أن أمر الله عز وجل لموسى وأخاه هارون عليهما السلام في مخاطبة فرعون خطابا لينا هادئا بعيدا عن العنف أو الوعيد بزوال ملكه على الأقل إذا لم يؤمن برسالة موسى وهارون، يقول سبحانه: "اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"(3)، هذا مع علم الله تعالى المسبق بعدم إيمان فرعون. قال بعض العلماء العارفين تعليقا على هذه الآية: هذه رأفته – سبحانه – بأعدائه فما البال برأفته بأوليائه!!

أجل إن الإسلام منذ أربعة عشر قرنا شرع مقعّدا ومبدعا حضارة الكلمة والقول والفعل والسلوك، بل إن الحضارة – بلا جدال – في عرف الإسلام وشريعته هي الأخلاق. وقد أشرنا فيما مضى أن أصول الأخلاق وجذورها هي الفطرة أو الاكتساب أو العقل، وأكدنا أن أخلاق – من بُعث ليتمم مكارم الأخلاق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم – هبة ونعمة من الوهاب المنعم تبارك وتعالى مستدلين بآية من سورة آل عمران، وها هي آية كريمة أخرى موجهة من الله جل وعلا إلى حبيبه عليه الصلاة والسلام آية قرآنية في أواخر سورة الأعراف يتولى من خلالها رب العزة – سبحانه – رسوله الكريم – بالتربية الأخلاقية الربانية، يقول الحق جل شأنه: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"(4)، لما نزلت هذه الآية سأل النبي صلى الله تعالى وسلم

---

(1) سورة النحل، الآية:١٢٥.
(2) سورة العنكبوت، الآية:٤٦.
(3) سورة طه، الآية ٤٤.
(4) سورة الأعراف، الآية:١٩٩.

سيدنا جبريل عليه السلام عن مغزاها ومعناها فقال: يا محمد إن ربك يقول هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك.

- والآية الكريمة السابقة، وإن كانت موجهة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة، إلا أن الأمة المستخلفة مشمولة بجميع الأوامر والوصايا القرآنية، وإن بدت خصوصيتها لخاتم الأنبياء والمرسلين عليه الصلاة والسلام، لذلك فإن جعفر الصادق - رضي الله عنه - وصف آية سورة الأعراف السابقة قائلاً: "ليس في القرآن أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، فأن يصل الإنسان من يقاطعه ويعطي من حرمه، والذي يعفو عمن ظلمه، هذه الخصال الثلاث الكريمة حقا إنها من مكارم الأخلاق وعظمتها ونبلها وسموها، لأنها دفع ومقابلة السيئة بالحسنة "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ولا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"[1]، ويقول صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها"[2]، إن الحديث النبوي خاص بالحض على صلة الأرحام والزجر من قطعها، وإن واصل الرحم ليس من يكافئ أو يقابل صلة بصلة، وإنما الواصل من يصل قاطع الرحم، أما الآية الكريمة فإنها تأمر بصلة القاطع عموما.

- إن قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ"، شبيه بقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا"[3]، وقوله عز وجل: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ"[4]، والمعنى أي داوم على تقواك يا رسول الله وداوموا على إيمانكم أيها المؤمنون.

إن خلق العفو والتسامح والإعراض عن الجاهلين، والعفو عن الظالم وصلة القاطع، ودفع السيئة بالحسنة، والإحسان إلى الجار وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف وإغاثة الضعيف كل هذه من مكارم الأخلاق، التي كان رسولنا قدوة حسنة فيها، وأسوة طيبة

---

(1) سورة فصلت، الآيات:٣٣-٣٥.
(2) رواه البخاري.
(3) سورة الأحزاب، الآية:١.
(4) سورة النساء، الآية:١٣٦.

لكل البشر، وسيأتي تفصيل كل ذلك – إن شاء الله تعالى – عند الحديث عن أخلاق الرسول، وكيف أنه صلى الله عليه وسلم كان خلقه القرآن. ولكن نود أن نشير هنا إلى قضية التسامح والعفو عن الظالم، ودفع السيئة بالحسنة. أن الإسلام كمنهج تطبيقي للحياة الإنسانية لم يدع هذه القضية مطلقة دون أن يضع لها بعض القيود والكوابح أولا: إن العفو عن الظالم من الفضل وليس من العدل.

وهذا الفضل أيضاً مقيد في تعاملات الناس الشخصية. يقول الحق تبارك وتعالى: "وجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ"(1)، ثانياً: إن هذا الفضل أي العفو عن الظالم لا ينسحب إلى حقوق الدولة الإسلامية، فالاعتداء على سيادة الدولة من قبل الأعداء ينبغي أن يقابل باعتداء مثله. يقول تعالى: "الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ والحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ"(2)، ذلك أن حقوق الدولة لا يملك أحد أن يفرط فيها قد أنملة، فإن العدو إذا نال شبرا واحدا من أراضينا لن يكتفي بذلك، بل يطمع في الاستيلاء على المزيد، وتاريخ الصراع العسكري والاستعماري بدءا من الحروب الصليبية إلى عصرنا الحالي بين إسرائيل والأمة العربية والإسلامية خير شاهد على أن التهاون في سيادة الأمة وكرامتها خيانة عظمى وطامة كبرى.

❁ ❁ ❁

والآن علينا أن نحيا لحظات في ظلال الأخلاق النبوية الوارفة، القدوة للإنسانية جمعاء الصديق والعدو، إنها الأخلاق – كما ذكرنا – المستنيرة بنور القرآن، المستقاة من نبعه الرائق الصافي هذه الأخلاق التي تعد بلا جدال بالباطل، ولا ريب لغة فصيحة ومقنعة للتخاطب والمحادثة العالمية لغة يفهمها ويعيها ويعقلها جميع الألسنة والأجناس والأديان والأوطان والأزمان إلى أن يقوم الناس لرب العالمين – كما أسلفنا – ولقد تكفل القرآن الكريم بنشر عبير هذه الأخلاق وشذاها وعطرها الفواح، في عديد من سوره بدءا من أوائل سورة البقرة، وأوائل سورة المؤمنون، والآية ٣٥ من سورة الأحزاب والآيات من رقم ٢٢ إلى ٣٥ من سورة المعارج، وغيرها من الآيات المبثوثة في سور القرآن وآياته الأخرى.

---

(1) سورة الشورى، الآية ٤٠

(2) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

ولما كان الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم قدوة البشرية في الأخلاق والعبادة والتشريع كان الإرشاد والتوجيه الإلهي الرباني بإتباع هذه الأسوة الحسنة، وطاعته ومحبته وإحياء سنته القولية والفعلية والتقريرية لأنه لا سبيل ولا مناص إلى استخلاف الأمة كخير أمة أخرجت للناس إلا بالاهتداء بهديه وسلوك طريقه ومنهجه.

- يقول الحق تبارك وتعالى: "لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ"(1)، ويقول عز وجل: "لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ"(2)، ويقول سبحانه: "مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ"(3)، و "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ"(4)، و "إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا"(5)، "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)"(6)، قال القاضي عياض تعليقا على ما جاء في هذه السورة: "هذا تقرير من الله جل اسمه لنبيه صلى الله عليه وسلم، على عظم نعمه لديه، بأن شرح قلبه للإيمان والهداية، ووسعه لوعي العلم. وحمل الحكمة، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه، وبغضه لسيرها وما كان عليه، بظهور دينه على الدين كله، وحط عنه عهدة أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس، ما نزل إليهم. وتنويهه بعظيم مكانه، وجليل رتبته، ورفعه وذكره وقرانه مع اسمه (اسمه) قال قتادة: رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد، ولا صاحب صلاة إلا يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله "الشفا بتعريف حقوق المصطفى".

❁ ❁ ❁

والآن إلى استعراض مفصل لأخلاق الرسول القرآنية – صلى الله عليه وسلم – والتي سبق أن وعدنا القارئ العزيز بأن نتعبق ونتطيب من مسك أخلاق النبوة المحمدية، وليكن أولها هو خلق العفو، العفو عند المقدرة، فقد روى الإمام

(1) سورة التوبة، الآية:١٢٨.
(2) سورة آل عمران، الآية:١٦٤.
(3) سورة النساء، الآية:٨٠.
(4) سورة الأنبياء، الآية:١٠٧.
(5) سورة الأحزاب، الآيات:٤٥-٤٦.
(6) سورة الشرح.

البخاري – رضي الله عنه – عن عبد الرحمن بن نُعم قال: سمعت أبا سعيد الخدري يقول. بعث عليّ بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن، بذهبية في أديم مدبوغ، لم تحصل من ترابها قال: فقسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أربعة نفر، بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وأما عامر بن الطفيل فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء، قال: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس مشمر الإزار. فقال: يا رسول الله اتق الله، قال: ويلك أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله، قال: ثم ولى الرجل، قال: خالد بن الوليد: يا رسول الله ألا اضرب عنقه، قال: لا، لعله يكون يصلي، فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني لم أومر أن أنقب الناس، ولا أشق بطونهم".

مما لا شك فيه أن هذا الرجل وإن كان قد انخرط في زمرة المسلمين، فما زالت روحه جاهلية، أو ما زالت أخلاقه مشوبة برواسب من الحمية الأولى، ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعرض وواجه مثل هذه المنكرات والآثام اللفظية في العهد المكي قبل الهجرة إلى المدينة، مثل قول بعض رموز الشرك لنبي الإسلام عليه الصلاة والسلام "تبا لك ألهذا جمعتنا" أو أنه "الأبتر" بعد أن توفى ابنه عبد الله من زوجه خديجة بنت خويلد – رضي الله عنها – وإن كان لهؤلاء المشركين عذر، فإن هذا الذي قال لرسول الله "اتق الله" لا عذر له، وكيف يكون له عذر وشرائع الإسلام ومبادئه استقرت في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم نابضة بالحياة، بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً، وذهب باطل الشرك واندحر اندحارا، وعلى الرغم من ذلك، فإنه صلى الله عليه وسلم منع خالد بن الوليد قتل هذا الرجل، قائلا له: لعله يصلي أي لعله مسلم، وكيف يأذن الرسول عليه الصلاة والسلام بقتل مسلم، وهو القائل: **"لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة"**[1].

إن شرائع الإسلام وقوانينه ليست حبرا على أوراق لا نصيب لها ولا فاعلية في دنيا الواقع الحياتي المعيش مثلما – بكل أسف – كثير من الدساتير الدولية المعاصرة

---

(1) فتح الباري.

فلحظة غضب شخصي عابرة من حاكم أو رئيس أو زعيم في دنيانا هذه كفيلة في إزهاق عشرات، ولا أقول مئات من الأنفس البريئة. ولكن مما لاشك فيه أن هذا الرجل الذي تطاول على الرسول عليه الصلاة والسلام أساء إساءة بالغة. نعم من حقه أن يطالب إذا كان ذا حق فالرسول الذي خلقه القرآن لا يغضب دفاعا عن حق شخصي إطلاقا، وإنما غضبه مقصور على انتهاك حرمة من حرمات الله عز وجل.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنه صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رءوف رحيم، يعفو ويصفح عنهم، ويعرض عن الجاهلين.

أخيراً إذا عدنا إلى الرجل غائر العينين، مشرف الوجنين، ناشز الجبهة، كث اللحية، محلوق الرأس، مشمر الإزار، كما جاء وصفه في الحديث، نقول إنه على الرغم من جهالته وسوء خلقه وفساد طويته، على قدر كبير من الغباء والحماقة وذي النظرة التقديرية المنعدمة لمجرى الحديث الحواري الذي دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين من سبق هذا الرجل في سؤال الرسول وإجابته عليه الصلاة والسلام عليهم بخصوص هذه الذهبية، فقد كان سؤالهم هو: "كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء" أنه مطالب بالحق أو بالحق في نظرهم ورؤيتهم الشخصية ولكنها مطالبة خاضعة ومحكومة بأدب الحديث الأخلاقي وقد رد صلى الله عليه وسلم بقوله: "ألا تأمنوني وأنا أمين في السماء يأتيني خبر السماء صباحا ومساء، فكانت هذه الإجابة النبوية المقنعة كافية، بل ومسكتة كل من تسول له نفسه بالاعتراض أو الانتقاد أو الشكوى من تقسيم الرسول العادل لهذه "الذهبية"، وبالتالي لم يكن هناك مسوغ أو مبرر لأن يتفوه هذا الذي تفوه بما تفوه!! ولكن ماذا نصنع وهذا شأن المعتوهين والحمقى! وكما قال الشاعر:

لكل داء دواء يستطب به

إلا الحماقة أعيت من يداويها

❁ ❁ ❁

إن لبعض شراح الأحاديث النبوية المعاصرين دأبا أو اعتيادا كريما، وذلك عقب فراغهم من بيان مفردات الحديث ثم المعنى الإجمالي والتفصيلي ثم أخيرا ما يؤخذ أو يستفاد من الحديث النبوي الشريف، ونحن إذا سلكنا مسلكهم ونهجنا نهجهم هذا الحميد، نقول إن هذا الحديث النبوي يطرح قضية جد خطيرة، ألا وهي مساءلة أو محاسبة

الحاكم أو الرئيس، أو الزعيم، أو كل من تولى ورعاية شأن عام من شئون المجتمع عاما أو خاصا، صغيرا أو كبيرا.

من نافلة القول أن الإسلام كفل هذا الحق وقرره للأمة نحو ولي أمرها، وقد قدمنا في هذا البحث بعض النماذج من مساءلة بعض المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وذلك عند حديثنا لقيمة العدل، أو عدل الحاكم للرعية، وهذه المساءلة أو الاستجواب من قبل الرعية لراعيهم يجد أذنا صاغية، وصدرا منشرحا ورضا وقبولا لدى الرعاة والحكام من الخلفاء الراشدين، يشهد بذلك قول الفاروق عمر لا خير فيهم إذا لم يقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها.

ولكن – وبكل أسف – إن سماحة الحكام الإسلامية هذه نحو شعوبهم لا نجد لها مثيلا أو شبيها ولو بنسبة ضئيلة في عالمنا الإسلامي والعربي، فوشيجة السماحة وسعة الصدر بين الحكام والمحكومين انقطعت حبالها، وبكل أسف وبكل مرارة نرى في الدول غير الإسلامية أن جميع حكامها خاضعون للمساءلة والحساب والاستجواب من قبل مجالسهم النيابية (البرلمانية) ومن وسائل إعلامهم المسموعة والمقروءة والمرئية بل لا نبالغ إذا قلنا أن حكامهم ورؤساءهم معرضون أحيانا للمحاكمة بل والعزل والإقالة، هذه العدالة السياسية التي يتباهى بها علينا الغرب هي مستعارة ومجلوبة من حضارتنا الإسلامية منذ أربعة عشر قرنا كما ذكرنا سابقا.

نعم إن هذه الدول غير الإسلامية إذا كانت تطبق العدل والمساواة في بلادهم وبين أبناء أوطانهم ولكنهم خارج هذه الأوطان وتجاه العالم الإسلامي والعربي يمارسون أسوأ وأبشع ألوان الظلم والطغيان والكيل بمكاييل ومعايير مزدوجة وواقعنا السياسي والقومي والإسلامي خير شاهد على ذلك – كما سبق – ولكن سياساتهم هذه الظالمة تجاهنا لا تسوغ إطلاقا أن تنقطع رحم سماحة العدل بيننا وبين حكامنا ورؤسائنا.

إن عفو رسول الله صلى الله عليه وسلم والصفح عن متجاوزين حدود الحوار والتخاطب بلين القول وطيب الحديث ليس مقصورا أو منحصرا فيمن وجه إليه كلمات وعبارات أقل ما توصف بها أنها غير مهذبة ولا لائقة وليست محترمة في محادثة شخص مع نظيره وقرينه، ناهيك عن الحديث مع سيد البشر المبعوث رحمة للعالمين – صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. والحديث الذي نعرضه والذي أخرجه الإمام أحمد بن حنبل – رضي الله عنه – يصور شخصا لم يتطاول على رسول الله عليه الصلاة والسلام بعبارة

نابية وبذيئة، وإنما رفع عليه السيف قاصدا القتل والاغتيال، وعلى الرغم من هذا الغدر والخيانة والبغضاء فإنها عجزت وفشلت أن تنال قيد أنملة من عظمة العفو النبوي وشموخه ورسوخه فيمن استعلى واستولى على عرش الخلق العظيم كما وصفه ربه جل في علاه "وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"، "عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: قاتل رسول الله محارب بن خصفة قال: فرأوا من المسلمين غرة فجاء رجل حتى قام على رسول الله صلى الله عليه وسلم بسيف فقال: من يمنعك مني؟ قال: الله فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله السيف، فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ. قال: تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، قال: لا غير أني لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله، فجاء أصحابه فقال جئتكم من عند خير الناس، الاعتداء هنا – كما قدمنا – ليس اعتداء أو تراشقا لفظيا أو هجوما بالسب أو الشتم، وإنما اعتداء أو محاولة للقتل المتعمد لإنهاء حياة إنسان لم يعتد على أحد بأي شكل من أشكال الاعتداء سبا أو لعنا أو طعنا باللسان أو اليد، إنه الإنسان الذي بعث ليدعو إلى السلام والأمن والمودة والعدل والحرية والمساواة بين الناس كافة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كما جاء في بعض الروايات منتبذا أي منتحيا أو معتزلا أصحابه ينشد الراحة تحت ظل شجرة معلقا سيفه عليها فاستغل هذا الجبان الأثيم، وانتشل السيف رافعا تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا له: من يمنعني منك ظانا أو واهما أن الله تعالى لن يحفظه من كيد الكائدين الخائنين ولن ينصره على أعدائه أو لم يسمع قول الله العزيز الحكيم: "مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ"[1]، ولما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ردا على قول هذا المعتدي الأثيم قائلا: الله فسقط السيف من يده ثم بادره صلى الله عليه وسلم: ومن يمنعني منك؟ وهنا نرى إجابة كل مهزوم مخذول تجرأ على الدخول في معركة لم يحسب لها حسابا ولم يكن أهلا لها فرفع راية الاستسلام والندم والخزي والعار معلنا أنه لن يقدم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولن ينضم إلى قوم يقاتلونه، إنها التوبة والحسرة على ألا يعود إلى مثل جهالته وجبنه وخزيه أبدا، التي كشفت عن حجم نفسه وشخصيته ومقداره الضئيل الحقير. وليته بعد هذه الفضيحة المؤكدة الصاخبة، وبعد المعجزة النبوية التي رآها بعيني رأسه، استجاب لدعوة الحق والتوحيد والنبوة بل بالغ السير في درب الجهالة والغواية والإشراك بالله تعالى، إن هذه المعجزة النبوية كفيلة وجديرة بإيمان المشرك والكافر. ولكن من المشركين

(1) سورة الحج، الآية: ١٥.

والكافرين والملحدين والعلمانيين لا يؤمنون بالمعجزات الحسية ولا العقلية ولا العلمية فهم كما قال الله تعالى فيهم "وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ" (1)، نعم إن المعجزة ليست باعثا أصيلا أو مباشرا لإيمان العبد، وإنما إيمان الإنسان موكول لإرادة الله ومشيئته يقول سبحانه "فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ" (2).

- وإذا كانت المعجزات هي السبب الفعال والوحيد في إيمان الإنسان لآمن قوم كل نبي من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقد كانوا مؤيدين بالمعجزات ولكن على الرغم من ذلك لم يؤمن برسالاتهم ودعوتهم إلا القليلون.

إن الحديث عن معجزات رسل الله تعالى وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام يقودنا إلى السؤال عن ماهية المعجزة التي عرفها علماء التوحيد أنها أمر خارق للعادة يظهر على مدعي النبوة، وأن الكرامة أمر خارق للعادة يظهر على ولي من أولياء الله تعالى الصالحين، والولي هو عبد صالح أحب الله تعالى وأحبه الله عز وجل. وذلك بعد أن تقرب إليه بالنوافل.

ومن كرامات أولياء الله تعالى كرامة السيدة مريم ابنة عمران - رضي الله عنها - التي كان يأتيها رزقها من الله تعالى وهي تتعبد في محراب المسجد الأقصى "كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ" (3).

- كما أننا نقرأ في سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ما يلي: "أن أبا مسلم الخولاني الذي أسلم أيام النبي صلى الله عليه وسلم، ودخل المدينة في خلافة أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - بعد انتقال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى، ولما كان الخولاني من اليمن الذي أدعى فيه الأسود العنسي النبوة الذي أمر الخولاني بأن يشهد أنه رسول الله، فلما أبى ألقاه الأسود في النار فلم تضره. فقدم المدينة، وأناخ راحلته، ودخل المسجد فبصر به عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قائلا له: ما فعل الذي حرقه الكذاب. قال: ذاك أبو مسلم الخولاني قال: نشدتك الله أنت هو؟ قال: نعم، فاعتنقه عمر وبكى

---

(1) سورة الأنعام، الآية ١١١
(2) سورة الأنعام، الآية ١٢٥
(3) سورة آل عمران، الآية ٣٧

فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من صنع به كما صنع بإبراهيم الخليل، وروى أنه "إذا استسقى سُقي"[1] ذلكم عبد من عباد الله تعالى ومن أوليائه الصالحين الربانيين الذين جاء وصفهم في الحديث القدسي الذي رواه صلى الله عليه وسلم عن ربه ونصه "إن الله قال من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها. ورجله التي يمشي بها. وإن سألني لأعطينه وإن استعاذ بي لأعيذنه.

الذي نود أن نقرره أولاً: أقر علماء التوحيد – كما سبق – أن للأولياء كرامة. هذه الكرامة إنما هي منحة أو هبة من الله عز وجل لهؤلاء الأولياء الأتقياء الذين أخلصوا التقرب والتضرع إلى مولاهم بالفرائض والنوافل مخلصين له الدين حنفاء، هذه الفرائض والنوافل المقرونة بالحب الخالص للمعبود الحق – سبحانه – ثانياً: هناك بون شاسع بين حقيقة المعجزة الخاصة بالأنبياء والمرسلين صلى الله تعالى عليهم وسلم. وبين الكرامة لأولياء الله الصالحين كما سبق تعريفهما، كما أن المعجزة تعني التحدي وإفحام الخصم وإسكاته ودفع حجته وإبطالها، أما الكرامة فتعني من مدلولها تكريما من الله تعالى عز وجل لبعض خلصائه من عباده المتقين "أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ"[2].

– ومن أخلاقه صلى الله عليه وسلم دفع السيئة بالحسنة، هذا الخلق الجميل، وإن كان يبدو خصوصيته للداعية إلى الله تعالى بالكلمة الطيبة المقرونة، بل المسبوقة بالعمل الصالح. فكما قيل "عمل رجل في ألف خير من قول ألف في رجل" نقول إن خلق دفع السيئة بالحسنة، ينبغي أن يتحلى به الناس كافة فهو عضو جوهري في منظومة الأخلاق الإسلامية، التي تكون جميعها لغة تخاطب وحوار عالمية ناجحة، كما ألمحنا إلى ذلك آنفا، فإن خلق دفع ومقابلة السيئة بالحسنة على أهميته وخطورته الإيجابية المثمرة غير أنه خاص لمعاملات المجتمعات الشخصية واليومية المتبادلة، أما ما يتعلق بالمعاملات الدولية البينية كما أشرنا إلى ذلك آنفا، فلا مجال فيها لدفع السيئة بالحسنة، وإنما المطلوب والمشروع التعامل الندي النظير، يقول الأستاذ/ سيد قطب أثناء تفسيره لقوله تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ

---

(1) باختصار وتصرف من سير أعلام النبلاء.

(2) سورة يونس، الآيات: ٦٢-٦٤.

قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) ولا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ ولا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ومَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ" (١)، يقول صاحب الظلال "وهذه السماحة قاصرة على حالات الإساءة الشخصية، لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها أو الصبر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولاً"(٢).

- وهذه درة من درر الأخلاق المحمدية في دفع السيئة بالحسنة والصبر على جهالات بعض الناس الذين يستغلون عظمة الأخلاق النبوية أسوأ استغلال وأفظعه؛ فإن هؤلاء كان العقل والحكمة والمنطق تقتضيهم وتلزمهم أن يسلكوا سبيل الأخلاق الكريمة، لاستجابة مطاليهم، ما داموا يعلمون علم اليقين أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرفض طلبا لهم ما دام هذا الطلب مستطاعا ومقدورا له إجابته. ولكنهم – مع الأسف – يأبون إلا أن يتخذوا ما أعوج من الوسائل لكي يصلوا إلى مآربهم وبغيتهم.

وهذا الحديث الذي أخرجه الإمام البخاري وغيره أقوى دليل وشاهد على قبح هذه المطالبة وسيئها، مع حسن الإجابة الأخلاقية وسموها، المصحوبة بالعفو والصفح الجميل: "عن أنس – رضي الله عنه – كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه بُرْد غليظ الحاشية فجبذه الإعرابي بردائه جبذة(٣) شديدة، أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ثم قال: يا محمد أحمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ومال أبيك. فسكت النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: المال مال الله وأنا عبده، ثم قال: ويقاد(٤) منك يا أعرابي ما فعلت بي قال: لا. قال: ولم قال: لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيرا وعلى الآخر تمرا".

- من الشائع المألوف والمعتاد في دنيا السائلين المعوذين المحتاجين الراغبين في قضاء حوائجهم المعيشية الملحة، أن يتلطفوا ويتوددوا بلين الخطاب ورقته، كي يصلوا إلى مقصودهم ومرادهم، فهذا هو سيدنا موسى كليم الله تعالى ومصطفاه ورسول الله تعالى من أولى العزم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم يعلمنا حسن

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣٤-٣٥.
(٢) الظلال ص٥، ص٢١٢٢
(٣) جذبه.
(٤) يقتص.

الخطاب وأدب السؤال والتضرع إلى رب العالمين خير مسئول وأكرم مجيب الذي يغضب من عبده لعدم سؤاله إياه – سبحانه وتعالى. ولننظر ماذا فعل سيدنا موسى عليه السلام بعد أن تلقى أمر ربه بالتوجه إلى فرعون الطاغية "قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا(٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى"[1].

على الرغم من القياس الفارق والبون الشاسع بين حسن التوجه الخطابي من موسى عليه السلام إلى ربه وخالقه سبحانه تعالت أسماؤه وجلت كلماته، وبين الأعرابي الذي خاطب رسول الله وخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم بالغليظ من القول والفعل والإعرابي هذا طالب إحسان أو صدقة، وليس مطلوبا، والرسول صلى الله عليه وسلم لو امتنع عن إجابة طلبه لن يكون ملاما. نقول على الرغم من ذلك إلا أن الله عز وجل أمرنا – على الأقل – ألا ندعو رسولنا كدعاء بعضنا بعضا، قال: "لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا"[2].

إن نوعية هذا الإعرابي السيئ الخلق والسلوك، ربما لم يخل مجتمع من المجتمعات قديما وحديثا من آفتها وشرها فتاريخ البشر مزيج من الخير والشر، والفضيلة والرذيلة والصلاح والضلال، وقد يجتمع في إنسان جميع معاني الخير أخلاقاً وسلوكا عمليا يوشك أن يكون ملكا، ويجتمع في آخر جميع السيئات الأخلاقية والسلوكية يكاد أن يكون شيطانا.

في عهد خلافة الفاروق عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سمعه رجل يقول في خطبته: إن أحسنت فساعدوني وإن أخطأت فقوموني، فقال هذا الرجل لأمير المؤمنين: لئن أخطأت لقومناك بحد سيوفنا، فرد عليه الفاروق قائلا: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد صلى الله عليه وسلم من يقومني بسيفه". إن عمر بن الخطاب وهو أمير المؤمنين رد على هذا الرجل الشبيه بالأعرابي الفظ الغليظ القلب في خلقه وسلوكه دون أن يغضب، ودون أن تدفعه سلطة الإمارة ونفوذها إلى أن يفتك بالرجل آمرا رجال الشرطة بإيداعه السجن أو المعتقل. كلا لماذا؟ لأنه تربى ونشأ في مدرسة الرسول الأخلاقية التي شعارها

---

(1) سورة طه، الآيات:٢٥-٣٦.

(2) سورة النور، الآية.٦٣.

وشعورها العفو والصفح عند المقدرة، إنها عدالة الإسلام السياسية والاجتماعية، قبل ميلاد الديمقراطيات بأربعة عشر قرنا.

الفصل السابع

خلق الجود والسخاء والشجاعة

خلق الجود والسخاء والشجاعة

إن جود الرسول صلى الله عليه وسلم وسخاءه وشجاعته شُهد بها كثير من الأحاديث الصحيحة والمواقف والأحداث العديدة منها حديث ابن عباس – رضي الله عنهما – "كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وأجود ما كان في شهر رمضان، وكان إذا لقيه جبريل عليه السلام أجود بالخير من الريح المرسلة"(1)، وعن أنس أن رجلا سأله فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى بلده وقال: اسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى فاقة، وأعطى غير واحد مائة من الإبل، وأعطى صفوان مائة ثم مائة، وهكذا كانت حاله قبل أن يبعث"(2).

وجاءه رجل فسأله فقال: "ما عندي شيء، ولكن ابتع عليّ. فإذا جاءنا شيء قضيناه فقال له: عمر ما كلفك الله مالا تقدر عليهن فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالا، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وعرف البشر في وجهه وقال: بهذا أمرت(3)، والرسول صلى الله عليه وسلم السخي الجواد والكريم المعطاء إنما كان كذلك لأنه كما سبق – أن أشرنا – خلقه القرآن والله تعالى في كثير من آياته القرآنية يحض على البذل والإنفاق ومن هذه الآيات قوله عز وجل "الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ"(4)، وقوله جل وعلا: "إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"(5)، ويقول سبحانه: "إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(6)، وقوله تبارك وتعالى: "وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ

---

(1) متفق عليه.
(2) مسلم.
(3) الترمذي.
(4) سورة البقرة، الآية:٢٧٤.
(5) سورة البقرة، الآية:٢٧١.
(6) سورة التغابن، الآيات:١٧، ١٨.

فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ"، ويقول صلى الله عليه وسلم: "السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة بعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولجاهل سخي أحب لله تعالى من عابد بخيل"[1]. وفي ذم البخل والشح يقول الحق تبارك وتعالى: "ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"[2]، ويقول عليه الصلاة والسلام: "ولا صاحب حق لا يفعل فيه حقه إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعا أقرع يتبعه فاتحا فاه، وإذا فر منه يناديه خذ كنزك الذي خبأت. فأنا عنه في غنى، فإذا رأى أنه لابد منه سلك يده في فمه فيقضمها قضم الفحل"[3]، وإنما كان الجود والسخاء والإنفاق من الأخلاق الكريمة والخصال الطيبة التي دعا إليها ديننا الحنيف، لأنها جزء لا يتجزأ من منظومة الأخلاق العظيمة مثل العفو والتسامح والصفح، والتجاوز عن زلات الناس وأخطائهم القولية والفعلية، ودفع السيئة بالحسنة، التي لا شك فيها أنها سبيل للتواصل والتواد والتآخي والتحاب ليس بين أفراد المجتمع الإسلامي وحسب، وإنما المجتمع الإنساني كافة.

ولاشك أن الأخلاق الإسلامية لغة تخاطب عالمية، ورابطة وثيقة وحيوية بين الناس جميعا. وما دام حديثنا عن الإنفاق والجود والسخاء، فإن الإسلام – لما كانت شريعته ربانية عليمة بطبيعة البشر وحاجاتهم الدنيوية الواقعية. وضع ضوابط وشروطا للإنفاق ولو كان هذا الإنفاق في سبيل الله تعالى. وابتغاء مرضاته ومثوبته وكانت الضوابط والشروط الإسلامية للإنفاق والبذل والعطاء نابعة من وسطية الدين الحنيف واعتداله، فالإسراف والتبذير منهيان إسلاميا، مثل الشح والتقتير قال الحكيم العليم سبحانه "ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا"[4]، وقال جل وعلا مثنيا على صفات عباد الرحمن: "والَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"[5].

نعم إن أمة الإسلام أمة وسطية لا غلو فيها ولا تقصير، لا إفراط ولا تفريط، لا تشدد ولا تهاون سواء في العبادات الركنية أو شريعتها التعاملية "وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

---

(1) الترمذي.
(2) سورة آل عمران، الآية ١٨٠.
(3) رواه البخاري
(4) سورة الإسراء، الآية ٢٩.
(5) سورة الفرقان، الآية ٦٧.

لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا"[1]، هذه الوسطية هي من مقومات وأركان الاستخلاف الإلهي في الأرض.

إن الحديث عن الإنفاق يقودنا إلى الحديث عن الغنى والفقر. والغني والفقير ودورهما في بناء الأمة المستخلَفة، وإن الكتاب والسنة لم يدعا أو يفرطا شيئا جليلا أو دقيقا فتيلا أو قطميرا يهم الأمة الإسلامية إلا وبيناه وفصلاه تفصيلا، فهذا هو مفهوم الغني والفقر يحددهما معرفا ماهيتهما الذي لا ينطق عن الهوى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث التالي: "عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم. أترى يا أبا ذر كثرة المال هو الغنى؟ قلت: نعم. قال: وترى قلة المال هو الفقر. قلت: نعم يا رسول الله، قال: إنما الغنى غنى القلب. والفقر فقر القلب"[2]. وقد شرح هذا الحديث في فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني قال: قال ابن لطال معنى الحديث ليس حقيقة الغنى كثرة المال، لأن كثيرا ممن وسع الله عليه في المال لا يقنع بما أوتي فهو يجتهد في الازدياد. ولا يبالي من أين يأتيه، فكأنه فقير لشدة حرصه، وإنما حقيقة الغنى غنى النفس وهو من استغنى بما أوتي وقنع به ورضي ولم يحرص على الازدياد ولا ألح في الطلب فكأنه غني.

وكون الغني غني النفس لا يعني ذلك القعود عن العمل المشروع والكسب الحلال، والدعوة إلى التكاسل والقناعة السلبية الرافضة لتعاطي الأسباب والأخذ بها، كلا فإن الإسلام يحرص ويشجع على العمل الصالح النافع والمنتج يقول عز وجل: "وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ"[3]، ويقول صلى الله عليه وسلم: "لأن يأخذ أحدكم أحبلا فيأخذ حزمة من حطب فيبيع فيكف الله بها وجهه خير من أن يسأل الناس أعطى أمن منع"[4]، والمال – كما سبق الإشارة عند حديثنا عن الزكاة ليس شرا على الإطلاق، يقول نبينا عليه الصلاة والسلام: "نعم المال الصالح للرجل الصالح"[5]، ويقول الإمام الغزالي – رحمه الله تعالى: "كل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به، وإنما شرط الإسلام في استخدام المال هو شرعية مصدره ومصرفه، وقوله صلى الله عليه

---

(١) سورة البقرة، الآية:١٤٣.
(٢) رواه مسلم.
(٣) سورة التوبة، الآية:١٠٥.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه الطبراني.

وسلم: "كاد الفقر أن يكون كفرا" (1) ثناء على المال أيضاً، وقال عليه الصلاة والسلام أيضاً. "اللهم اجعل قوت آل محمد كفافا" (2)، وقال: "اللهم أحيني مسكينا وأمتني مسكينا وأحشرني في زمرة المساكين"، ونقول إذا كان قوله صلى الله عليه وسلم: "كاد الفقر يكون كفرا" والحديثان التاليان له ذم للمال وثناء للفقر فكيف التوفيق بينهما؟ يجيبنا الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه المشهور "إحياء علوم الدين" فيقول: "إن المال محمود من حيث هو خير ومذموم من حيث هو شر، فإنه ليس بخير محض، ولا شر محض بل هو سبب للأمرين جميعا، وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة ويذم أخرى".

ويقول – رحمه الله تعالى أيضاً: "فوائد المال تنقسم إلى دنيوية ودينية أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها" فإن معرفتها مشهورة بين أصناف الخلق ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبه، وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع: **النوع الأول:** أن ينفقه على نفسه إما في العبادة أو في الاستعانة على عبادة. **النوع الثاني:** ما يصرفه إلى الناس وهو أربعة أقسام: الصدقة والمروءة ووقاية العرض وأجرة الاستخدام. **النوع الثالث:** ما لا يصرفه إلى إنسان معين، ولكن يحصل به خير عام كبناء المساجد والقناطر، ودور المرضى، ونصب الجباب في الطريق.

أما آفات المال فدينية ودنيوية، أما الدينية فثلاث: الأولى أن تجر إلى المعاصي فإن الشهوات متفاصلة والعجز قد يحول بين المرء والمعصية. الثانية: أن يجر إلى التنعم في المباحات. فمتى يقدر صاحب المال على أن يتناول خبز الشعير ويلبس الثوب الخشن ويترك لذائذ الأطعمة كما يقدر عليه سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في ملكه. الثالثة: وهي التي لا ينفك عنها أحد وهو أن يلهيه إصلاح حاله عن ذكر الله تعالى. وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران(3)، نعتقد أن الإمام أبا حامد الغزالي قد أجاب على شبهة التعارض بين الأحاديث السالفة الذكر فللفقر آفات وعيوب ومزايا وفوائد وللمال كذلك والله تعالى أعلى وأعلم، والمعيار والميزان في تعيين كل من الفقر والغنى الممدوح والمذموم هو تعريف الذي علمه ربه سبحانه وأدبه فأحسن تعليمه وتأديبه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم – للغنى بأنه غنى النفس، فغنيّ النفس لا يضيره امتلاكه المال الوفير أو عدم امتلاكه، فكما قال الإمام الغزالي لم يمنع ذلك سيدنا سليمان عليه السلام من التواضع

---

(1) رواه مسلم، متفق عليه.

(2) الترمذي.

(3) إحياء علوم الدين ج٣ ص١١٣٤- ص١١٣٧ باختصار.

وتناوله خبز الشعير ولبسه الثوب الخشن، أما ثراء قارون صاحب الكنوز الذهبية فدفعه ثراؤه وأمواله الطائلة إلى الكفر بالله تعالى والبغي والإفساد في الأرض، لأنه أي قارون على الرغم من كنوزه المكتنزة، فليس غنى النفس والقلب.

❁ ❁ ❁

ما زلنا نتفيأ بالشجرة الأخلاقية النبوية ذات الثمار الطيبة والروائح الزكية، التي قدمنا بعضا منها، ولكن ما فتئت الشجرة العظيمة الخصال والصفات المضيئة التي تهدي البشرية إلى ما فيه سعادتها دنيويا وأخرويا تثمر الأخلاق الكريمة ومنها خلق الشجاعة، ومفهوم الشجاعة ليس مقصورا على المتعارف بين كثير من الناس وهو الفتوة العضلية أو الحركية المادية فرسولنا صلى الله عليه وسلم لم يُعد هذه شجاعة بل أعطى الشجاعة هوية إسلامية أخرى فقال عليه الصلاة والسلام: "ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب" أي أن الذي يسيطر ويتحكم في انفعالاته السلبية هو الشديد وهو الشجاع، وهذا لا يعني أن للشجاعة معاني ودلالات أخرى في مواقف ومواطن أخرى فمعاركنا القتالية والحربية ضد أعدائنا وأعداء ديننا الإسلامي في حاجة إلى الشجاعة العضلية والإقدام وليس الإحجام حسب مقتضي ظروف المواجهة والمجابهة، وإن كانت الشجاعة الفردية قد اختفى دورها في الحروب الحديثة إلى حد ما، نظراً لاختلاف وتباين الآلة الدفاعية والهجومية عن الحروب في العصور والعهود السابقة التي كان للمجهود الفردي دور أساسي في غالب الأحوال. وقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم في تلك الحروب صفحات مشرقة من البطولة الجريئة شهد بها الصحابة الأطهار – رضوان الله عليهم، فقد قال علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – "إنا كنا إذا حمى حمى البأس، وأحمرت الحدق أتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان أشد الناس يومئذ بأساً"[1].

"ولما رآه أبي بن خلف يوم أحد وهو يقول: أين محمد لا نجوت إن نجا وقد كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر: عندي فرس أعلفها كل يوم فرقا[2] من ذرة أقتلك عليها. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا أقتلك إن شاء الله، فلما رآه يوم أحد شد أبيّ على فرسه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاعترضه رجال من المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "هكذا أي خلوا طريقه، وتناول الحربة من

(1) أحمد والنسائي والطبراني/ الشفا/ مصدر سابق.
(2) مكيال.

الحارث بن الصمة وانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشّعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم فطعنه طعنة تدأدأ[1] منها عن فرسه مرارا وقيل بل كسر ضلعا من أضلاعه فرجع إلى قريش يقول: قتلني محمد وهم يقولون: لا بأس بك، فقال: لو كان ما بي بجميع الناس لقتلهم أليس قد قال: أنا أقتلك. والله لو بصق عليّ لقتلني. فمات بسرف في دخولهم إلى مكة[2].

❁ ❁ ❁

- وليست مجالات الشجاعة أو حقيقتها محصورة في المعارك القتالية أو الحربية، كلا، فمن الشجاعة شجاعة القول في مواقف تستدعي إظهار الحق وإبطال الباطل، كما يقول صلوات الله وسلامه عليه في حديث ما معناه أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قال كلمة حق أمام سلطان جائر فقتله، نعم ما أكثر كلمة الحق والصدق والعدل التي تموت في قلوب الجبناء أمام إعلان الزور والزيف والكذب خوفا ومداهنة ونفاقا من ذوي السلطة والنفوذ الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد، ولكن على الرغم من ذلك فإن الإنسانية على اختلاف العصور وتعاقب الأزمنة والحقب، لم تحرم من رجال يأبون إلا أن يصرخوا بكلمة الحق ولو كان الثمن حياتهم، فهاهم سحرة فرعون بعد أن آمنوا بنبوة سيدنا موسى عليه السلام، وأن عصاه معجزة إلهية وليست سحرا، عندئذ أعلنوا إيمانهم بنبوة موسى وهارون عليهما السلام غير مبالين بتهديد فرعون إياهم بالقتل ومن قبل كان هؤلاء السحرة يلتمسون من فرعون الأجر المادي والمعنوي نظير انتصارهم على موسى عليه السلام وقد وعدهم فرعون بذلك. فأقسموا بعزة فرعون أنهم غالبون، ولكن بعد إيمانهم اليقيني انقلبوا من النقيض إلى النقيض زاهدين ومضحين ليس بمكافأة فرعون وحسب بل بحياتهم.

نقرأ النص القرآني السامي في عرضه البياني المعجز لقصة فرعون وكبريائه وجبروته مجادلا بالباطل نبي الله تعالى موسى عليه السلام حتى إظهار الحق وإبطال الباطل ودفعه.

"قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ

---

(1) تدحرج.
(2) الشفاء

تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٢) قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَرُونَ (٤٨) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)"[1].

هذه صورة رائعة من صور الشجاعة النابعة من قوة الإيمان بالله عز وجل الذي لا معبود سواه جل جلاله، وفي الوقت نفسه الكفر بكل طاغوت متجبر، مدع للألوهية والربوبية الكاذبة، إنها شجاعة حقا وصدقا، ليست مدّعية ولا مزيفة سعيا لفخر ومباهاة وطلبا لمديح وثناء كلا، إنها شجاعة باعثها خشية الله تعالى وحده، حيث أن من خشي الله عز وجل لا يخشى أحدا غيره، مهما زعم هذا الغير أو تظاهر بالقوة والبطش والانتقام.

هذا وسحرة فرعون ليسوا هم الوحيدين الذين جهروا بكلمة الحق والإيمان ولو كان ثمن هذه الكلمة هو حياتهم، كما صرحوا بها متحدّين فرعون وذلك في آية أخرى قائلين: "فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا"[2]، نقول إن من سلك مسلك سحرة فرعون كثيرون، حيث أن الصراع بين الحق والباطل قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وها هي بعض النماذج المشرقة في سماء بطولة الكلمة المزلزلة لعروش الجبروت والطغيان والإفساد في الأرض.

١- "حكى أن حطيطا الزيات جيء به إلى الحجاج ابن يوسف الثقفي، فلما دخل عليه

---

(1) سورة الشعراء، الآيات: ١٦-٥١.

(2) سورة طه، الآية: ٧٢.

قال: أنت حطيط؟ قال نعم سل عما بدا لك، فإنني عاهدت الله – عند المقام على ثلاث خصال: إن سئلت لأصدقن، وإن ابتليت لأصبرن وإن عوفيت لأشكرن. قال فما تقول فيّ؟ قال: إنك من أعداء الله في الأرض تنتهك المحارم، وتقبل بالظنة. قال: فما تقول في أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟ قال إنه أعظم جرما منك، وإنما أنت خطيئة من خطاياه. قال الحجاج: ضعوا عليه العذاب، فانتهى به العذاب إلى أن شقق له القصب، ثم جعلوه على لحمه وشدوه بالحبال، ثم جعلوا يمدون قصبة قصبة، حتى انتحلوا لحمه، فما سمعوه يقول شيئا. فقيل للحجاج إنه في آخر رمق. فقال: أخرجوه فرموه به في السوق. قال جعفر: فأتيته أنا وصاحب له فقلنا له: حطيط ألك حاجة؟ قال: شربة ماء، فأتوه بشربة ماء، ثم مات، وكان ابن ثماني عشرة سنة رحمة الله عليه"[1].

٢- "روى أن عمر بن هبيرة دعا بفقهاء أهل البصرة وأهل الكوفة وأهل المدينة وأهل الشام، وقرائها، فجعل يسألهم وجعل يكلم عامر الشعبي، فجعل لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علما ثم أقبل على الحسن البصري، فسأله ثم قال: هما هذان، هذا رجل من أهل الكوفة يعني الشعبي، وهذا رجل من أهل البصرة يعني الحسن، فأمر الحاجب فأخرج الناس، وخلا بالشعبي والحسين. فأقبل على الشعبي فقال: يا أبا عمرو إني أمين أمير المؤمنين على العراق، وعامله عليه ورجل مأمور على الطاعة ابتليت بالرعية، ولزمني حقهم، فأنا أحب حفظهم وتعهد ما يصلحهم من النصيحة لهم. وقد يبلغني عن العصابة أهل الديار الأمر أجد[2] عليهم فيه. فأقبض طائفة من عطائهم فأضعه في بيت المال، ومن نيتي أن أرده عليهم، فيبلغ أمير المؤمنين أني قبضته على هذا النحو فيكتب إليّ أن لا ترده فلا أستطيع رد أمره، ولا إنفاذ كتابه وإنما أنا رجل مأمور على الطاعة فهل عليّ في هذا تبعة وفي أشباهه من الأمور. والنية فيها على ما ذكرت، قال الشعبي: فقلت أصلح الله الأمير، إنما السلطان وال يخطئ ويصيب قال: فسرّ بقولي، ورأيت البشر في وجهه، وقال فلله الحمد ثم أقبل على الحسن، فقال: ما تقول يا أبا سعيد، قال: سمعت قول الأمير يقول: إنه أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، ورجل مأمور على الطاعة، ابتليت بالرعية ولزمني حقهم. والنصيحة لهم، والتعهد لما يصلحهم، وحق الرعية

---

(١) الإحياء للغزالي.
(٢) أغضب عليهم

لازم لك، وحق عليك أن تحوطهم بالنصيحة، وإني سمعت عبد الرحمن بن سمرة القرشي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من استرعى رعية فلم يحطها بالنصيحة حرم الله عليه الجنة"، وتقول إني ربما قبضت من عطائهم إرادة إصلاحهم واستصلاحهم، ويرجعوا إلى طاعتهم فيبلغ أمير المؤمنين إني قبضتها على ذلك النحو. فيكتب إليّ أن لا ترد فلا أستطيع رد أمره، ولا أستطيع إنفاذ كتابه، وحق الله ألزم من حق أمير المؤمنين، والله أحق أن يطاع فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فاعرض كتاب أمير المؤمنين على كتاب الله عز وجل، فإن وجدته موافقا لكتاب الله فخذ به، وإن وجدته مخالفا لكتاب الله فانبذه. يا ابن هبيرة اتق الله، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك من سريرك ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك فتدع سلطانك ودنياك خلف ظهرك، تقدم على ربك، وتنزل على عملك، يا ابن هبيرة إن الله ليمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وإنه لا طاعة في معصية الله، وإني أحذرك بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، فقال ابن هبيرة: أربع على ظلعك[1] أيها الشيخ، وأعرض عن ذكر أمير المؤمنين، فإن أمير المؤمنين صاحب العلم وصاحب الحكم وصاحب الفضل، وإنما ولاه الله تعالى ما ولاه من أمر هذه الأمة لعلمه به، وما يعلمه من فضله ونيته، فقال الحسن: يا ابن هبيرة الحساب من ورائك سوط بسوط – وغضب بغضب والله بالمرصاد يا ابن هبيرة إنك إن تلق من ينصح لك في دينك، ويحملك على أمر آخرتك خير من أن تلقى رجلا يغرك ويمنيك. فقام ابن هبيرة وقد بسر وجهه وتغير لونه، قال الشعبي: فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصلته، فقال: إليك عني يا عامر. قال: فخرجت إلى الحسن التحف والطرف، وكانت له المنزلة، واستخف بنا وجفينا، فكان أهلا لما أدى إليه، وكان أهلا أن يفعل ذلك بنا فما رأيت مثل الحسن فيمن رأيت من العلماء إلا مثل الفرس العربي بين المقارف، وما شهدنا مشهدا إلا برز علينا وقال لله عز وجل، وقلنا مقاربة لهم[2].

٣- قد استنصح هارون الرشيد أبا يوسف تلميذ الإمام أبي حنيفة – رضي الله عنه – ليكتب له بعض المسائل المتعلقة بشئون الحكم مثل جباية الأموال، وتولية الولاة

---

(١) لا تجاوز حدك.

(٢) المصدر السابق.

والقصاة وجهاد المشركين وغيرها فما كان من أبي يوسف إلا أن يجدها فرصة لتوجيه أمير المؤمنين لعله عملا بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد تضمنت التوجيهات مقدمة كتاب الخراج لأبي يوسف بن يعقوب بن إبراهيم، وكان مما جاء فيها "فلا تلق الله غدا وأنت سالك سبيل المعتدين، فإن ديان يوم الدين، إنما يدين العباد بأعمالهم، ولا يدينهم بمنازلهم، وقد حذرك الله فاحذر، فإنك لم تخلق عبثا، ولن تترك سدى، وإن الله سائلك عما أنت فيه، وعما عملت به، فانظر ما الجواب، واعلم أنه لن تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن علمه ما عمل فيه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيما أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه فاعدد يا أمير المؤمنين للمسألة جوابها، فإن ما عملت فائبت فهو عليك غدا يقرأ، فاذكر كشف قناعك فيما بينك وبين الله في مجمع الأشهاد، وإني أوصيك يا أمير المؤمنين بحفظ ما استحفظك الله، ورعاية ما استرعاك الله، وألا تنظر في ذلك إلا إليه وله فإنك إن لم تفعل تتوعر عليك سهولة الهدى. وتعمي في عينيك وتتعفى رسومه، ويضيق عليك رحبه، وتذكر ما تعرف وتعرف منه ما تنكر" (1).

❁ ❁ ❁

النماذج الأربعة السابقة تنبع من معين واحد ويجمعها منهج واحد أو غاية واحدة ألا وهو إعلان كلمة الحق دون التفات إلى ما تسفر عنه هذه الكلمة عن نتائج لا تحمد العقبى، ولكن النموذجان الأول والثاني كلمتهما صادرة عن إيمان يقيني من لا يخشى في الحق لومة لائم، أما النموذجان الأخيران فيتميزان عن شقيقيهما السابقين بالعلم الراسخ بالإضافة إلى الإيمان اليقيني، فكلمة الحق فريضة واجبة، ولكن لا تبلغ أوجها ورفعتها وعظمتها إلا إذا اقترنت بالعلم المقتبس من الكتاب والسنة.

فالعلم من خصائص ومقومات الأمة المستخلَفة، أو ليس أول خليفة لهذه الأمة، تميز من قبل الله تعالى عن الملائكة الذين لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – بالعلم "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ

(1) المصدر السابق.

أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣)"[1].

أجل إن العلم من شروط الأمة المستخلَفة، لأن العالم لا يخشى إلا الله "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ"[2] وخشية العالم لله وحده، وعدم خشيته أحدا سواه، ولو كانت هذه السوى حاكما ظالما وطاغية يملك جميع وسائل القمع والإبادة والتعديب، كما كان فرعون. نقول إن خشية العالم ربه وخالقه وحده – سبحانه – عنصر مهم وجوهري لإصلاح كل ما أعوج وانحرف من شئون الأمة المستخلَفة وذلك بمواجهته هؤلاء الذين يعيثون في الأرض فسادا وإفسادا وإهلاكا.

لقد تحدى الإمام أحمد بن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله الحكام والأمراء الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد قائلاً: "ماذا يريد الأعداء مني: سجني خلوة. ونفيي سياحة، وقتلي شهادة"، ويقول مفكر معاصر في هذا المعنى – وهو الأستاذ عباس العقاد رحمه الله: "لا معنى للدين ولا للخُلق، إذا جاز للناس أن يخشوا ضررا يصيب أجسامهم ولا يخشوا ضررا أن يصيبهم في أرواحهم وضمائرهم وينزل بحياتهم الباقية إلى ما دون الحياة التي ليس لها بقاء، وليس فيها شرف ولا مروءة"[3].

"نعم بجهاد المجاهدين بالكلمة فليس الجهاد بالسلاح أو السيف فقط، إنما الجهاد كما يكون بالمال والأنفس يكون بالكلمة الهادفة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر وبالنصيحة لله ولرسوله ولعامة المسلمين، وبالشورى تتأكد حرية الرأي وحرية التعبير وحرية النقد البناء لسياسة الدولة، وحرية مناقشة بل ومراجعة ومساءلة الحاكم "إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني"، كما قال أول خليفة لشئون المسلمين وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه. وبهذه الحرية بالمنظور الإسلامي التي ترتكز وتستند على أسس إسلامية وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصيحة والشورى التي تتولاها المجالس النيابية والشعبية ووسائل الإعلام المختلفة تتحقق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفي ظل هذه العدالة الشاملة يسود الرخاء والأمن والطمأنينة وسعادة المجتمع"[4].

---

(1) سورة البقرة، الآيات: ٣٠-٣٣.
(2) سورة فاطر، الآية:٢٩.
(3) التفكير فريضة إسلامية، ص١٩.
(4) الشخصية السوية بين الإعجاز الإسلامي وعلم النفس، حسن ياسين عبد القادر.

كتب أخرى للمؤلف:

- الإعجاز الطبي في الكتاب والسنة.
- لا إله إلا الله محمد رسول الله حضارة ومنهج حياة.
- الشخصية السوية بين الإعجاز الإسلامي وعلم النفس.
- إحياء المنهج الإسلامي لخيرية الأمة.

المحتـــــوى

الإهـــداء	٥
تقديـــم	٧
الفصل الأول: ماهية الاستخلاف.	١٣
الفصل الثاني: الشريعة.	٣١
الفصل الثالث: التعاون على البر والتقوى.	٥٩
الفصل الرابع: الإسلام والمواطنة.	٦٩
الفصل الخامس: الدولة الدينية والدولة الإسلامية.	٧٩
الفصل السادس: عالمية الأخلاق الإسلامية.	٨٩
الفصل السابع: خلق الجود والسخاء والشجاعة.	١٠٩
كتب للمؤلف	١٢٣
الفهـــرس	١٢٤

رقـــم الإيـــداع

٢٠١٤ / ٩٢٩٩

الترقيم الدولي I.S.B.N ٩٧٨-٩٧٧-٢٠٩-٢٥٦-٧